معاً إلى الله

مجموع تفريغ (6) حلقات من سلسلة

«معا إلى الله»

للشيخ أيمن الظواهري





1444 هـ 2022 م

Baytalmaqdiss44@gmail.com

بيت المقدس

مجموع تفريغ (6) حلقات

من السلسلة المباركة:

«معا إلى الله»

للشيخ د. أيمن الظواهري

بيت المقدس

الفهرس

مقدمة الناشر

الحمد لله، ونصلي ونسلم على رسول الله، وبعد:

نجمع في هذه الصفحات تفريغ حلقات السلسلة المباركة التي نشرتها مؤسسة السحاب للشيخ أيمن الظواهري بعنوان «معا إلى الله»، وهي من آخر ما أصدرته المؤسسة للشيخ -تقبله الله إن كان شهيدًا-.

وقد جمعناها في ملف واحد على أملِ الوصول إلى الحلقات الست التي نشرت إلى هذه اللحظة، وسيتم إضافة أي حلقات جديدة عند نشرها بإذن الله.

يُرجى الانتباه إلى أنه تم تمييز كل كلام ليس للشيخ أيمن — في السلسلة- بلون مختلف.

نسأل الله أن يتقبل من الشيخ أيمن هذا الجهد والتفاني في صناعة الوعي وتوجيه المسلمين لأفضل فهم لواقعهم وواجبهم تجاهه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

معا إلى الله (الحلقة الأولى)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أيها الإخوة المسلمون في كل مكان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

أود أن أتحدث هذه المرة عن ظاهرة قديمة جديدة، يراد بها محاربة الإسلام وعقيدته، ألا وهي الدعوة للإلحاد.

والإلحاد قديم في تاريخ البشرية، وقد أشار إليه القرآن الكريم في مواضع، كما رد على دعاته أهل الإسلام من لدن حضرة النبي -ﷺ- لليوم، والإلحاد مع قدمه إلا أن صورته قد تتشكل وتتغير، ولكن حقيقته واحدة، وهي الانحراف عن منهج الله المنزل.

وأود أن أشير إلى أن الإلحاد في القرآن لا يقتصر على ما تعارف عليه الناس وخاصةً في هذا العصر، من أنه إنكار وجود المولى سبحانه، ولكن الإلحاد في القرآن أعم من ذلك، فهو يعم كل انحراف عن عقيدة الإسلام وشريعته، قال الله -سبحانه وتعالى- عن المسجد الحرام: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25)﴾ [الحج: 25]، وقال سبحانه: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180)﴾ [الأعراف: 180].

وذلك أن الإلحاد في اللغة هو الميل وترك القصد.

والإلحاد العقدي في زماننا يمكن تقسيمه لإلحادين: إلحاد نفي؛ وهو ما ينصرف له عرف الناس، ويعنون به إنكار وجود الله سبحانه، وإلحاد تعطيل؛ وهو نفي بعض الصفات عن المولى ونسبتها لغيره، ومن أظهر أمثلتها -في عصرنا- النظم العلمانية، التي تتحاكم لغير الشريعة، ويبررون هذا بأنه علمانية جزئية، لا تعادي الدين، فهؤلاء ألحدوا في اسم من أسمائه سبحانه، فعطلوا صفةً من صفاته، وهي صفة الحكم، فالله هو الحكم. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 10]. وقال رسول الله ﷺ: "إن الله هو الحكم"[1].

[1] أخرجه النسائي، وصححه الألباني. إرواء الغليل ج: 8 ص: 355.

والملاحدة النفاة –على مدى التاريخ البشري– قلة، وقد تضعضعت أحوالهم –في هذا الزمان– بعد سقوط الشيوعية. ولكن الملاحدة المعطلين هم أكثر فئات الضالين، ومعهم كانت معظم معارك الرسل والموحدين.

وأنا اليوم أود أن أركز على إلحاد النفي.

وسأقسم حديثي –بعون الله ومشيئته– لثلاثة أجزاء:

الأول: وهو أقلها أهميةً؛ عبارة عن رد مبسط موجز على الملحدين النفاة.

والثاني: حول الدوافع المختلفة لإلحاد االنفي.

والثالث: حول الأهداف السياسية لنشر الإلحاد بين المسلمين.

***

الجزء الأول: رد على الملحدين النفاة

سأحاول أن أكون في هذا الرد بسيطًا وموجزًا قدر إمكاني، لأن هذا الأمر تناوله علماء الإسلام بتفصيل طويل، بل الكثير من أصحاب الأديان الأخرى قد تناولوه.

كما أن الإلحاد منبوذ في فطرة البشر، يأباه السواد الأعظم منهم.

وسأقسم حديثي في هذا الجزء –بعون الله ومشيئته– لثلاثة أقسام:

- أولها: في رد موجز على عقيدة الملحدين النفاة.
- وثانيها: عرض موجز لبعض لوازم عقيدتهم.
- وثالثها: توضيح هذا الرد باقتباسات من أقوال ملحدين مشاهير، ارتدوا ثم تابوا وعادوا للإسلام.

***

وقبل البدء في الجزء الأول من الرد على عقيدة الملحدين النفاة، أود أن ألخص ما هو مجمل عقيدتهم على اختلاف أهوائهم وآرائهم.

ملخص قولهم أن الواقع الموضوعي –الذي يسمونه المادة– مستقل عن الوعي، ومؤثر فيه.

والمادة عندهم هي الجسم ذو الامتداد والوزن والشاغل حيزًا من الفراغ، وهي المكونة الأصلية للأشياء وعناصرها، وهي مستقلة عن الوعي، بل ما الوعي إلا انعكاس لها.

وهي أولية في الوجود والتأثير، بينما الوعي تابع ثانوي لها. ولذلك قاد هذا المذهب كل القائلين به لنفي وجود المولى سبحانه، وأنه لا خالق لهذه المادة، لأنها –في نظرهم– هي الأولى.

وأن هذا الوجود بأجرامه ومخلوقاته وأحيائه إنما نشأ صدفةً، ويمضى إلى غير غاية، ووصل لما وصل له بسلسة من الأفعال وردود الأفعال العشوائية. وهؤلاء هم الذين كانوا يسمون بالدهريين عند علماء المسلمين.

فيقول جوليان هكسلي: "لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدةً من قصائد شكسبير! فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجةً لعمليات عمياء، ظلت تدور في (المادة) لبلايين السنين".

ويعبر برتراند رسل –الفيلسوف الملحد الشهير– عن هذه النظرة اللاعقلية الموحشة البغيضة بقوله: "والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، إن بدأه ونشوءه وأمانيه ومخاوفه وحبه وعقائده كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة، والقبر ينهى حياة الإنسان. ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرةً أخرى. إن هذه المجهودات الطويلة والتضحيات والأفكار الجميلة والبطولات العبقرية كلها سوف تدفن تحت أنقاض الكون، ولو لم تكن هذه الأفكار قطعيةً فإنها أقرب ما تكون إلى الحقيقة، حتى إن أية فلسفة تحاول إنكارها ستلقى فناءها تلقائيًا".

وهو بهذا يبين خلاصة الفكر المادي، فالكون بلا هدف، تتلاشى فيه معايير الخير والشر، حتى أن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلمًا، لأنهم سوف يلقون حتفهم على أية حال يومًا ما. وسأشير لهذا –إن شاء الله– عند الحديث عن لوازم إلحاد النفي.

كذلك تأثرت الاتجاهات المادية اللادينية أيما تأثر بنظرية دارون في النشوء والارتقاء، وإن كان دارون لم ينف وجود المولى سبحانه، ولكنه زعم أن تطور الإنسان –من كائن وحيد الخلية بسيط إلى الإنسان الحالي– لا يحتاج في تفسيره لافتراض وجود الله.

وأن هذا التطور تم عشوائيًا، وأن البقاء كان للكائنات الأقوى أو الأقدر على التكيف، التي استطاعت البقاء عبر الصراع مع غيرها من الكائنات، والتكيف مع عوامل الطبيعة.

وقد أشار القرآن الكريم للملحدين النفاة، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)﴾ [الأنعام: 29]، وقال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24)﴾ [الجاثية: 24].

ولكن معركة القرآن الكبرى كانت مع الشرك، لإن الإلحاد طارئ وقليل في تاريخ البشرية، حتى الاتحاد السوفيتي -الذي كان يرعى الإلحاد رسميًا- انهار بعد ستين سنة، والصين تحولت لدولة رأسمالية، وحلف وارسو تجده في أرفف المكتبات، ومعظم أعضائه لحقوا بحلف الناتو.

وقد رد القرآن الكريم على الملحدين النفاة بجواب بليغ مسكت، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36)﴾ [الطور: 30-36]، وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)﴾ [الواقعة: 58-59].

ففي هذه الآيات رد عليهم القرآن الكريم بالتحدي المعجز في قوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31)﴾ [الطور: 31]، فهذا تحد بما سيقع في الغيب، وقد وقع وانتصر الإسلام وانهزم الشرك، وكذلك تحداهم بمعجزة القرآن في قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور: 34].

ثم تحداهم بالدليل العقلي المفحم في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35)﴾ [الطور: 35] وفي قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)﴾ [الواقعة: 58-59].

وذلك أن معرفة الحق لها طرق منها:

طريق الوحي الذي ثبت بالإعجاز، وهو أشرفها.

ومنها طريق الاستدلال بالفطرة التي ركزها المولى سبحانه في النفس الإنسانية.

ومنها طريق النظر في مخلوقات الله ونظمها وسننها.

ومنها طريق الاستدلال العقلي.

ولن يبلغ برد اليقين وراحة سكينة النفس إلا من تابع الوحي.

واستعمالنا للعقل إنما للتعرف على سبل الوصول للحق، ولرد شبهات ووساوس النفس، ثم لرد جدال المخالف.

أما الراحة والسكينة والرضا فلا سبيل لها إلا بمتابعة وحي الرب الودود الرؤوف إلى أنبيائه صلى الله عليهم وسلم، وأشرفهم وخاتمهم حبيبنا وسيدنا وهادينا للحق مُحَّد ﷺ. يقول عنه الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: 54]، وقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)﴾ [الأعراف: 157].

وكل مؤمن وملحد لا بد أن يقر أنه إذا ثبت نزول الوحي من المولى سبحانه فلا بد من متابعته.

ولهذا إذا جاء ملحد وقال: أنا لا أقتنع بالإسلام أو الأديان، لأنها مثلًا تحض على الكراهية والعنف والظلم إلى غير ذلك، فهذا هازل غير جاد.

لأن المؤمن الجاد إذا بلغه أمر الله ورسوله قال: سمعنا وأطعنا.

والملحد الجاد لا يبحث في حكمة الأديان لأنه لا يؤمن بمن أنزلها، فإذا آمن به وجب عليه اتباع وحيه.

وفي الحقيقة أن الناس لا يفصل بينهم إلا وحي منزل من السماء، وإذا ردوا لعقولهم، فلكل واحد منهم عقل يدعي أنه دله على العلم الضروري.

وأنا مستعينًا بالله سأورد باختصار الرد على الملاحدة النفاة بهذه الطرق: العقلي والفطري والإعجازي.

وسأبدأ بالاستدلال العقلي، حتى لا يقول الملاحدة النفاة أني أهرب منه، أو أنهم لا يؤمنون بالوحي فكيف أستدل عليهم به، وهو دليل ملزم لهم كما سأبين إن شاء الله.

فأما الرد العقلي فمنه:

أولًا: إن هذه الكائنات الموجودة في الكون كل منها له بداية ونهاية، سواءً كانت أحياء أو جمادات، فهذه الكواكب تنشأ وتفنى أو تنفجر، وهذه النباتات والأشجار والبشر ينشئون ثم يموتون، وهذه الشمس تنفجر باستمرار فينقص من كتلتها –مع غيرها من الكواكب– ملايين الأطنان.

ومن البديهي أنها لم تنشئ نفسها، ولا بد لها من موجد، فكل موجود أوجده موجد، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35)﴾ [الطور: 35] وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)﴾ [الواقعة: 58-59].

والعقل لا يقبل أن يكون كل موجود منها أزلي، ولا يقبل أن يكون موجدها عدمًا محضًا،

إذًا فلا بد من موجد أول لم يوجده غيره، وهو الحق سبحانه، القائم بذاته، المستغن في وجوده عن غيره، أو كما سمى سبحانه نفسه: القيوم. قال عز من قائل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255].

وثانيًا: كل من هذه الموجودات ممكنة الوجود أو العدم، ففلان من الناس، لو لم يتزوج أبوه أمه لما وجد، ولكان معدومًا، إذن فقد كان من الممكن أن يكون معدومًا أو موجودًا، وكل ممكن الوجود محتاج

لمن يرجح وجوده على عدمه، والعقل يأبى أن يكون فلان هذا نفسه هو الذي أوجد نفسه، لأن هذا يقتضي أن يكون موجودًا قبل وجوده، وهذا تناقض، إذن فلا بد من موجود أول، وجوده واجب، أي لا يحتاج في وجوده إلى غيره، وهو الحق سبحانه وتعالى القيوم بذاته، والذي لم يسبق وجوده وجود، ولم يكن وجوده محتملًا، بل كان وجوده حتمًا واجبًا.

وثالثًا: كل موجود من الموجودات يفتقر في وجوده إلى سبب لإيجاده، فالبذرة سبب في النبات، والثمرة السابقة على البذرة سبب في وجود البذرة، وهكذا تتكرر الأسباب، كل موجود له سبب أو علة في وجوده، ولا يقبل العقل أن يكون الموجود –المحدود ببداية ونهاية، والمحتمل وجوده أو عدمه– سببًا في وجود نفسه، ولا يقبل العقل ألا يكون هناك سبب أول للموجودات، إذن فلا بد من علة أولى وسبب أول، مستغن في وجوده عمن يسببه، قال الحق سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)﴾ [الحديد: 3].

ورابعًا: إن هذه الموجودات تتغير من حال لحال، فالطفل ينشأ صغيرًا، ثم يتدرج حتى الهرم، فمن الذي غيره؟ ومن البديهي أنه لم يغير نفسه، إذن فهناك من غيره، فمن الذي غير من غيره؟ وهكذا تتسلسل الأسئلة، ولا يقبل العقل أن لا يكون هناك مصرف أول صرف الكائنات، ولا يصرفه غيره، وهو الحق سبحانه، قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)﴾ [الأنعام: 101-102].

ولمزيد من التبسيط والتوضيح أورد ما سبق على شكل الحوار التالي:

أنت تعلم أنك حادث، وجدت بعد أن لم تكن، فإما أن تكون قد أوجدك العدم المحض بلا موجد، أو أن يكون شيئ آخر قد أوجدك.

ومن المستحيل أن تكون قد أوجدك العدم المحض بلا موجد. إذًا لا بد لك من موجد.

وهذا الموجد إما أن يكون أنت أو غيرك.

ومن المستحيل أن تكون أنت الذي أوجدت نفسك، أي كنت ضرورةً موجودًا قبل أن توجد. وهذا تناقض أوغل في البطلان.

إذًا لا بد أن يكون موجدك غيرك ضرورةً.

وهذا الغير إما أن يكون محتاجًا إلى موجد أو لا يكون.

ولا يجوز أن يكون مثلك محتاجًا لغيره، لأن ما قلناه عنك ينطبق عليه تمامًا.

إذًا لا بد أن يكون الموجد خالقًا قيومًا، أي قائمًا بذاته، غنيًا بنفسه

غير محتاج إلى موجد أصلًا، وهذا هو الله الحي القيوم.

وخامسًا: أقول للذين يرون أن هذا الكون قد وجد صدفةً، بتفاعل بعض العناصر، التي كانت موجودةً في ظروف معينة ونسب معينة وأزمنة معينة، وكذلك الحياة نشأت بتفاعل بعض العناصر في ظروف معينة فجاءت صدفةً.

أقول لهم:

إن كلمة الصدفة هي مجرد تعبير وصفي لا يجيب على التساؤلات السابقة، فمثلًا إذا كنت تسير في الطريق، فقابلت صديقًا قديمًا بلا ترتيب ولا موعد، فهذا احتمال، وكان من الممكن أن تقابل غيره، ممن تعرف أو لا تعرف، ممن رتبت أو لم ترتب لقاءهم.

إذن من الذي جمعك بهذا الصديق في هذا المكان وذلك الزمان؟

بل إذا قابلت -بدلًا منه في نفس الظروف- غيره، أي تحقق احتمال آخر، فمن الذي حقق هذا الاحتمال الآخر؟

إذن يبقى السؤال بـ(من) معلقًا بلا إجابة. وكلمة "من" يكرهها الملاحدة.

ثم إذا كان كل هذا الكون قد وجد صدفةً، فمن الذي أوجد الصدفة؟ من الذي أوجد العناصر اللازمة بالنسب اللازمة في الأحوال الضرورية اللازمة في الأزمنة اللازمة بالحركات اللازمة بالشروط اللازمة لتلك الصدفة؟

إن قال الملحد: لا أعلم. قلنا له: فلم علمت أن الكون قد وجد صدفةً؟

وإن قال: إنما أوجد الصدفة صدفة قبلها. قلنا له: نحن في حاجة لعدد ضخم من الصدف، فكل عنصر من العناصر نشأ صدفةً، وكذلك الظروف الضرورية من الحرارة والضغط والحركة والمكان والزمان والسرعة واتجاه السير... إلخ كل منها قد أوجدته صدفة، ثم جاءت صدفة فجمعت كل هذه الصدف، ثم جاءت صدفة أخرى فجعلتها تتفاعل مع بعضها؟

ثم لا بد أن تتسلسل الأسئلة: فمن أوجد صدفة الصدفة؟ ومن أوجد صدفة صدفة الصدفة؟ في عبث لا متناه من الضلال.

ثم نقول لذلك الملحد: نحن لم نسألك -فقط- كيف توفرت ظروف الصدفة؟ ولكن نسألك -أيضًا وبإلحاح- من أنشأ الصدفة؟ من هو المتسبب في إيجادها؟ أتلكم العناصر والظروف التي وفرت الصدفة أوجدت نفسها؟ أم أوجدها موجد؟؟؟ وصدق الله العظيم: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35)﴾ [الطور: 35].

وبنفس المنطق يقال لأمثال جوليان هكسلي صاحب مثال القردة الستة والآلة الكاتبة؛ من الذي أوجد القردة الستة؟ ومن الذي أوجد الآلة الكاتبة؟ ومن الذي جمعهم في مكان واحد؟ ومن الذي مد في عمر القردة لبلايين السنين؟ ومن الذي منح الآلة الكاتبة الصلابة حتى تستمر في العمل لبلايين السنين؟ دون أن تتلف أو تحتاج لصيانة أو تبلى أو تنبري من شدة الطرق عليها؟ ومن الذي أمدها بالورق؟ وأدخله فيها؟ ومن الذي أمدها بالحبر؟ وداوم على إمدادها به؟ ومن الذي أجبر القردة على البقاء يطرقون على الآلة الكاتبة لملايين السنين دون أن يملوا ويفروا؟ هل كان معهم مراقب يجبرهم على العمل المتواصل؟ ومن هو؟

وكلمة (من) والسؤال بها يكرهه الملحدون، كما ذكرت.

ثم إذا كان العمل لمدة ملايين السنين قد أنتج قصيدةً واحدةً أو احتمال قصيدة -في زعمك- لشكسبير، فكم من الزمن سيلزم لإنتاج كل قصائده؟ وكم من الزمن يلزم لإنتاج كل قصائد الشعراء الإنجليز؟ وكم من الزمن يلزم لإنتاج شعر كل شعراء الدنيا؟ وكم من الزمن يلزم لإنتاج كل الأدب في الدنيا؟ وكم؟ وكم؟ وكم؟.....؟

ثم إذا كنت تقول إن بلايين النسخ -التي لا معنى لها- وجدت من بينها ورقة واحدة، فيها قصيدة لشكسبير، فيلزم من كلامك أن إنتاج عالم واحد بالصدفة لا بد أن يصاحبه بلايين العوالم وبلايين المخلوقات المعطوبة الفاسدة المحطمة، وأن بلايين النسخ الفاسدة هذه هي الغالبة الطاغية، فأين

هي؟؟ وصدق الله وكذبت ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)﴾ [الملك: 1-4].

وبعض الملحدين يكابر ويزعم أن هناك أكوانًا أخرى معطوبةً لا نراها، ونحن لا نتعامل مع الأوهام والفروض الخيالية. وإذا كنت لا تؤمن بالمولى سبحانه، الذي قام البرهان الضروري على وجوده، بزعم أنه غيب، فكيف تدعونا للإيمان بخرافة؟

ثم في كوننا هذا أين بلايين المخلوقات والموجودات المعطوبة؟ لماذا تستخف بعقولنا وتحدثنا عن أكوان وهمية؟ أهذا هو نهاية ما تسميه بالتفكير العلمي؟

ثم يقال -لمن قال: إن العالم حدث ويجري بالصدفة وبطريقة آلية-: أنت أولى أن يقال لك: إن ما تزعمه نظريات عميقةً وأفكارًا رصينةً ليست إلا مجرد أصوات صدرت من فمك، أو حروف على ورق تجمعت بالصدفة فظهرت كما تنطقها، أو تكتبها، وحقيقتها عبث لا فائدة منه ولا هدف ولا غاية، ولم تقصدها، بل والأفكار التي في رأسك ما هي إلا مجموعة من التفاعلات الكيماوية العشوائية الآلية، حدثت في خلايا الدماغ العصبية بطريق الصدفة، فأنتجت هذا الهراء.

أفهذا الكون المحكم الصنع المحير المبهر حدث صدفةً؟ وأنت فكرك رصين مقصود، نشأ عن نظر متأن وقواعد محكمة ومقدمات يقينية ونتائج لازمة، وهو فكر ذو غاية وهدف يسبر أغوار الحقيقة! لماذا يكون فكرك استثناءً عن الكون؟

ثم نقول له: لو افترضنا أنك اكتشفت يد لص، وقد اندست في جيبك، فأمسكت بها وبه متلبسًا بجريمة السرقة، ثم لما علم اللص أنك من المجادلين بالصدفة، قال لك: إنما دخلت يدي لجيبك بالصدفة. فماذا أنت قائل له؟ هل تقول له: مرحبًا بأخي في العقيدة؟ أم تسوقه للشرطة؟ وإذا سألك سائل: لماذا تسوقه للشرطة؟ فماذا أنت قائل له؟ أفتقول له: لكي تأخذ العدالة مجراها من هذا اللص الأثيم، الذي لا يعرف خلقًا ولا قيمًا. فأية عدالة وأي خلق وأية قيم هذه؟

العدالة تتطلب حقًا مسلوبًا لتوصله لمستحقه، فما هو الحق؟ وما هو المستحق؟ في عالم كله صدفة في صدفة وعبث في عبث.

ثم إن العدالة تتطلب شريعةً تنفذها، والشريعة تتطلب أخلاقًا وقيمًا تنتجها، فأي أخلاق وأية قيم؟ إذا كان كل شيء خبط عشواء وصدفةً، وليس هناك قيمة ولا مرجعية عندك إلا واقعك الذي حدث بالصدفة.

وقد يماحك عبد الصدفة فيقول: إن الشريعة والأخلاق هي ما اتفق عليه العقلاء. فهذه إجابة تثير أسئلةً أكثر، منها على سبيل الإيجاز؛ على ماذا اتفق العقلاء؟ هل اتفقوا على خلق العالم بالصدفة؟ ثم كيف يتفقون؟ بالإجماع أم بأغلبية الناخبين الديمقراطية؟ لو كان الأمر بالديمقراطية فمعنى هذا أن ذلك اللص الذي ذكرناه، لو كان معه ثلاثة آخرون، وقابلوا عبد الصدفة في صحراء ليس فيها غيرهم، فمن حقهم أن يسلبوه ماله، وربما ملابسه أيضًا، وحينئذ سيعدونها من محاسن الصدف، أو رب صدفة خير من ألف ميعاد!!

ثم إن العدالة تتطلب فصلًا بين الخصومات، وهذا يتطلب سلطةً محايدةً لا تتأثر بالأهواء والنزعات ولا الميول لتفصل بين الموجودات، ولا يتحقق ذلك إلا في المولى سبحانه وتعالى المنزه عن النقائص.

ثم إن الحكم على الشيء –كما يقولون– فرع عن تصوره، ولذا لا يمكن للحاكم أن يحكم في قضية إلا إذا تصورها، وكلما كان تصوره أقرب للحقيقة كلما اقترب حكمه من الصواب، والعكس بالعكس، وحيث أن الإنسان –باتفاق الملحدين والمؤمنين– يجهل عن نفسه بل وعن سائر الكون –بأضعاف رهيبة– أكثر مما يعلم، لذا فإن القادر الوحيد على الحكم الصحيح هو المولى سبحانه وتعالى. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)﴾ [الملك: 14].

<u>وسادسًا</u>: وكذلك أقول –لمن يقول: إن هذا الوجود والحياة نشئا بلا هدف ولا غاية–: أنت أيضًا كلامك هذا –الذي هو جزء من هذا الوجود– يلزمك أن يكون عبثًا بلا غاية ولا قصد، وليس برأي حكيم ولا نظرية متماسكة، بل عبث وهراء بغير قصد ولا هدف؟

ثم لماذا نراك متحمسًا تضيع عمرك ووقتك في الدفاع عن نظرياتك ونشرها والرد على مخالفيها؟ إن كان الأمر كله عبث في عبث. لم لا تدع مخالفيك يعبثون مع العابثين؟

<u>وسابعًا</u>: وكذلك الذين يقولون إن الإنسان نشأ تبعًا لنظرية النشوء والارتقاء من كائنات بسيطة تطورت بلا هدف ولا غاية ولا إرادة حتى وصلت للإنسان الحالي.

أقول لهم: ليس من شأن هذه الكلمة التطرق للثغرات الكثيرة فيما تقولون، ولكني أسألهم:

<u>لو أن هناك كائنات تطورت من بعضها، فهل هي طورت نفسها؟ أم هناك من طورها؟ ومن هو؟؟</u>

ولو أن مصنعًا مشهورًا ينتج كل سنة طرازًا جديدًا من منتج معين (سيارة- حاسوب- مذياع..)، وعادةً يكون بين الطرز المتتالية تشابه، كما أن المصنع يضع شعاره على كل طراز، فهل يمكن أن يكون التشابه بين الطرز المتتالية دليلًا على أن كل طراز قد نشأ وتطور من الطراز الذي قبله، أم يكون دليلًا على أن جهة الإنتاج واحدة؟

ثم لو جاء أفاق محتال لصاحب ذلك المصنع، فخاصمه أمام المحكمة بألا حق له في احتكار هذه المنتجات والاستئثار بفوائدها التجارية والقانونية، لأن هذه المنتجات نشأت بفعل تلاطم وتصادم عوامل عديدة خبط عشواء بلا ترتيب ولا قصد ولا غاية ولا سعي حثيث ولا إرادة في إنتاجها، وبالتالي فإن نسبتها لذلك المصنع وصاحبه وعدمها سواء، كما أن عدم نسبتها للمحتال الأفاق ونسبتها سواء، فهل يمكن أن تقبل دعوى ذلك المحتال الأفاق أمام أي قاض، حتى لو كان ذلك القاضي ملحدًا ماديًا متعصبًا لنظرية دارون في النشوء والأرتقاء.

ثم السؤال الأهم؛ أليس المولى -سبحانه وتعالى- بقادر على أن يخلق آدم في الجنة، ثم ينزله للدنيا في أي وقت يشاء، سواءً تطورت الكائنات أم لم تتطور؟

إذن القضية المحورية بيننا وبينكم هي في المولى سبحانه وتعالى، الذي تنكرون وجوده، أو تعطلون صفاته.

هذه هي القضية، وهي قضية البشرية في صراع الإسلام والكفر من بدايتها لنهايتها.

وثامنًا:

أقول للذين يزعمون أن هذا الكون نشأ من المادة: ما هي هذه المادة؟

لقد اكتشف العلم أن المادة بمعنى الجسم المتحيز ذي البعد والوزن يمكن أن تتحول لطاقة، وكذلك العناصر المختلفة تتكون من ذرات، وهذه الذرات تتكون من إلكترونات سالبة وبروتونات موجبة ونيوترونات متعادلة، وقوىً مختلفة تضمها لبعضها، وتضبط الإلكترونات في مساراتها، وشحنات كهربائية، وأمواج مختلفة، وإشعاعات، إلى غير ذلك من المجهولات.

ثم هناك الضوء المكون من الفوتونات، التي تتصرف أحيانًا كأجسام، وأحيانًا كأمواج.

ثم هناك الحرارة، التي تنتقل من الأجسام الساخنة للباردة.

ثم إن كتلة الأجسام تتلاشى، والإشعاعات تضعف، والحرارة تنتقل -حسب القانون الثاني للديناميكا الحرارية- من الحار للبارد، فتبرد الأجسام.

فأي شيء مادتكم؟

فمنهم من يقول: المادة الأولية أزلية،

ومنهم من يقول: المادة والحركة أزليتان، بل القوانين الحاكمة.

فأقول لهم:

1- أنتم تدعون الكفر بالغيب، ولكنكم تعتقدون في غيبيات اضطررتم لها لما كفرتم بالواحد الحي القيوم سبحانه.

فما القانون العلمي والقوة والحركة والجاذبية وقوى الطرد والجذب والزمن الأزلي والبعد اللامتناهي والمادة الأزلية إلا مفاهيم لا تخضع للحس والمشاهدة والقياس، أي هي غيب، ومع ذلك لا يجرؤ أحد من الماديين على إنكارها، وإلا لاتهمه زملاؤه بالسطحية.

وسيأتي -إن شاء الله- أن الدكتور عبد الوهاب المسيري في رحلته من الإلحاد للإيمان قد أدرك: "أن كثيرًا مما يسمى "القوانين العلمية" هي -في واقع الأمر- مقولات فلسفية قبلية، يؤمن بها العالم، وعلاقتها بعالم التجربة العلمية إما واهية وإما منعدمة".

2- وأقول لهم: المؤمن والملحد متفقان على أن موجودات هذا العالم متغيرة، وكل متغير لا بد له من أصل ينشئه، والمؤمن يعتقد بأنه الباري سبحانه، أما الملحد فيعتقد أنها المادة الأزلية.

وهنا أسأله: هل هذه المادة التي تؤمن بها هي من جنس مادة مخلوقات وموجودات هذا العالم أم لا؟

فإن قال: نعم. إنها من جنسه، وقع في تناقضات:

التناقض الأول:

أن كون هذه المادة من جنس هذا العالم المادي يقتضي أن تكون جزءًا منه، وهذا يقتضي أن جزءًا من هذا العالم كان موجودًا قبل أن يوجد العالم، وهذا تناقض فاضح.

والتناقض الثاني:

أن كون هذه المادة من جنس هذا العالم يقتضي أن تكون لها بداية كما أثبت العلم، ويقتضي أن تقبل التغير والتطور، والملحد يقول بأزليتها وأوليتها، وهذا تناقض مع عقيدته.

والتناقض الثالث: أن كون هذه المادة من جنس هذا العالم يقتضي فناءها، والملحد يقول بخلودها.

وإن قال: لا هي ليست من جنس هذا العالم، وأعني بها المادة من حيث هي مادة.

إذن فيلزمه أنها شيء آخر غير هذا العالم، الذي نعرف أنه ممكن الوجود له بداية ونهاية.

فحينئذ أقول له: أنت قد أحلتنا على غيب مجهول، فلم تكفر بالله لزعمك أنه غيب مجهول؟

3- ما السبيل لمعرفتكم بهذه المادة المطلقة الأزلية والأبدية؟

إن قلت البرهان، وقعت في تناقض مع عقيدتك التي تزعم أنها لا تؤمن إلا بالواقع المادي الحسي.

ولزمك أن تقول: إني أؤمن بقوة غيبية مجهولة ليست من جنس هذا العالم.

إذن فأنت تكفر بالله لتعبد هواك إلهًا، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24)﴾ [الجاثية: 23-24].

وتاسعًا: أسأل الملحد عن هذه القوانين التي تحكم الكون:

فأول ما أسأله عنه هو: ما معنى أن يكون هناك قانون لأشياء، ألا يعني هذا وجود حفظ وضبط وتسيير على نمط معين لهذه الأشياء؟

فمثلًا إذا دخلت مستشفى، فوجدت أن كل الإجراءات تسير على نمط منتظم ومتسلسل، فماذا تستنتج؟ وإذا سرت في مدينة كبيرة فوجدت أن المرور يتدفق بسلاسة وانتظام دون حوادث، فماذا تستنتج؟

وإذا دخلت امتحانًا فأجبت في ورقتك إجابةً منمقةً مرتبةً منظمةً مستوعبةً، وأجاب زميل لك إجابةً مهوشةً لا يفهم منها شيء، ثم أعطاكما الممتحن درجةً واحدةً، فهل تقبل؟ أم تعتبر تصرفه ظلمًا بينًا؟ لم يفرق بين المنظم والفوضوي، والمرتب والمهوش، والضابط والمفرط، والحافظ والمضيع، ولم يفرق بين من أراد الضبط ومن لم يرده.

إذن لا يتصور أن تكون القوانين إلا أثرًا من أثار التصميم والإرادة والحكمة والقوة الغالبة على ما دونها.

قال الحق سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)﴾ [يس: 38-40].

وثاني ما أقول له: إن كل قانون لا بد له من مقنن قننه، ومن قانون أعلى منه يحكمه.

فمثلًا قانون لعبة كرة القدم، الذي ينظم تسجيل الأهداف والضربات الركنية وضربات الجزاء إلى غير ذلك، من الذي قننه؟ الجواب مثلًا: اتحاد كرة القدم.

ومن الذي قنن قانون اتحاد كرة القدم؟ الجواب مثلًا: الاتحاد العالمي لكرة القدم، أو وزارة الشباب والرياضة.

ومن الذي قنن قوانين وزارة الشباب والرياضة ونظم عمل موظفيها؟ الجواب مثلًا: قانون الموظفين والعاملين في الحكومة.

ومن الذي قنن قانون الموظفين والعاملين في الحكومة؟ الجواب مثلًا: مجلس الشعب أو البرلمان؟

ومن الذي قنن قانون عمل مجلس الشعب أو البرلمان؟ الجواب مثلًا: الدستور.

ومن الذي قنن الدستور؟ الجواب مثلًا: الاستفتاء الشعبي.

ومن الذي قنن الاستفتاء الشعبي؟ الجواب مثلًا: أصوات غالبية المنتخبين.

ومن الذي قنن تصويت المنتخبين؟ الجواب مثلًا: رغبتهم في العدالة والحكم الرشيد.

ومن الذي قنن رغبتهم في العدالة والحكم الرشيد؟ الجواب مثلًا: عقولهم.

ومن الذي قنن عمل عقولهم؟

وهكذا تتسلسل الأسئلة بلا نهاية.

إذن فلا بد من أول يشرع للخلق، مستغن بذاته، ولا يجري عليه حكم غيره، وهو المولى سبحانه الحي القيوم، يقول عز من قائل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89)﴾ [المؤمنون: 88-89]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 10]، ولذلك فإن من أسمائه سبحانه الحكم، كما جاء في الحديث الذي ذكرته آنفًا.

وهنا أسأل الملحد: من قنن هذه القوانين التي تحكم الكون؟

إن قال: هي أزلية لم يسبقها مقنن. إذن فأنت أحلتنا على قوة غيبية ليست من جنس هذا العالم، فلم تنكر وجود المولى سبحانه؟

وثالث ما أسأل الملحد هو: عن هذه المادة الأزلية وقوانين الطبيعة التي يزعم أنها هي التي أوجدت الكون؟

فأسأله: أهي موجودة فلا بد من الجواب بنعم.

وهل هي حية؟ فلا بد من الجواب بنعم. لأنها -في زعمكم- التي أوجدت الحياة، فلا يمكن أن تكون ميتةً.

وهل هي خالقة بارئة مصورة لغيرها؟ فلا بد من الجواب بنعم.

وهل هي محيية ومميتة؟ فلا بد من الجواب بنعم.

وهل هي رازقة؟ فلا بد من الجواب بنعم. لأنها التي وفرت الغذاء والماء والهواء.

وهل هي قادرة وقاهرة وحاكمة؟ فلا بد من الجواب بنعم.

ثم هذه المادة -على زعمكم- قد صدر عنها الكون، الذي أثبت العلم أن له بدايةً، إذن هي رجحت وجود الكون على عدمه، إذن هي مريدة مختارة، أليس كذلك؟ فلا بد من الجواب بنعم.

وهل هي غالبة لإرادات غيرها؟ فلا بد من الجواب بنعم.

وهل هي عالمة؟ فلا بد من الجواب بنعم. لأنها لو لم تكن عالمة فكيف منحتنا العلم؟

وهل هي حافظة؟ فلا بد من الجواب بنعم.

وهل هي مدبرة؟ فلا بد من الجواب بنعم.

وهل هي هذا القميص الذي تلبسه، والجورب الذي في قدمك، والقلم الذي في جيبك؟ فلا بد من الإجابة بلا. لأن كل هذه مفعولات لغيرها ولها بداية ونهاية.

إذن هذه القوة مباينة للموجودات المحسوسة في العالم.

إذن هذه القوة موجودة حية خالقة بارئة مصورة محيية مميتة رازقة قادرة قاهرة حاكمة مريدة مختارة غالبة عالمة حافظة مدبرة مباينة للمحسوسات.

إذن لو كنت شجاعًا، لقلت: لا إله إلا الله.

<u>وعاشرًا:</u>

يعجز التصور المادي عن تفسير كثير من أسرار الحياة.

فما المشاعر والأحاسيس؟

ولماذا الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتساءل عن سبب وجوده ومصيره؟

ولماذا الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يسجل المعرفة، وينقلها للأجيال التالية؟ فيتقدم في مجال العلوم.

ولماذا يضحي الإنسان راضيًا من أجل غيره؟

ولماذا يجد الإنسان في نفسه وازعًا قويًا لفعل الخير، وتأنيبًا في ضميره على فعل الشر؟

ولماذا تنشأ فيه عقدة الذنب إذا أذنب؟ فلا يرتاح إلا إذا أرجع للمظلوم حقه.

وما معنى البر ومساعدة المحتاج، وما معنى نصرة المظلوم؟

وما معنى الأمومة، والبنوة، والأبوة ؟

وما معنى الشهادة في سبيل الحق؟

وما الأمانة وما الصدق وما النزاهة وما الوفاء؟

كل هذه وأشباهها معان يقف التفسير المادي أمامها عاجزًا قاصرًا مذهولًا، لأنها لا يمكن تفسيرها كيميائيًا ولا فيزيائيًا، ولأن عالم المادة عالم يحطم القوي فيه الضعيف.

بل هناك ظواهر مادية يعجز العلم المادي عن تفسيرها:

فمثلًا ظاهرة التفرد: في البصمات وحدقة العين والحمض النووي، وظاهرة هجرة الأسماك والطيور لأماكن ولدت بعيدًا عنها.

والمادي المتعصب يزعم أن العلم سوف يكتشف حقائق هذه الظواهر، وهذه إحالة لمجهول، فلعله لن يعرفها، ولعله سيعرف بعضها ويجهل بعضها، ولعله غير قابل لمعرفتها، مثل الأبله الذي لو عاش ألف سنة فلن يفهم الرياضيات.

فتأمل كيف يحيلنا إلى الغيب والمجهول من يزعم العلمية التجربية الصارمة.

<u>وحادي عشر:</u>

أقول للملحد: أنت تزعم أن المادة سابقة للفكر، وهي أولية وهو تابع لها وأثر من آثارها، وهي أزلية قبله، فهل شاهدت ذلك بعينيك؟ هل كنت موجودًا في وقت كانت فيه مادة بدون فكر؟

فالجواب قطعًا: لا.

فأسأله: هل لديك دليل تجريبي محسوس يدرك بالحواس الخمس على هذا الزعم.

فالجواب: لا.

إذن فبما استدللت على ذلك؟

جوابه: بالبرهان.

إذن أنت أثبت أزلية المادة وأسبقيتها بدليل غير مادي محسوس، وهذا تناقض مع عقيدتك.

ثم أنت تزعم أن العقل والفكر والعواطف، قد نشأت من المادة، وهذه أشياء لا وزن لها ولا حجم، فالإنسان حين ينام أو فور موته لا ينقص وزنه ولا حجمه.

إذن أنت أثبت صدور شيء غير مادي من شيء مادي، وهذا يناقض عقيدتك أن الكون ليس فيه إلا المادة.

***

وأكتفي بهذا القدر، وأواصل الحديث في الحلقة القادمة إن شاء الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

معا إلى الله (الحلقة الثانية)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أيها الإخوة المسلمون في كل مكان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

كنت في الحلقة الأولى قد ذكرت ردًا عقليًا –موجزًا مبسطًا– على الملاحدة النفاة.

وفي هذه الحلقة أواصل بقية الرد، فأذكر –إن شاء الله– موجزًا عن الاستدلال الفطري، والاستدلال بمخلوقات الله، والاستدلال بالوحي المعجز.

أما عن الاستدلال الفطري فهو من أقوى الأدلة على وجود المولى سبحانه، وهو في الحقيقة أقوى من الاستدلال العقلي، لأن كل إنسان يجده مركوزًا في نفسه، وإنما يستخدم الاستدلال العقلي لدفع وساوس النفس وشبه المجادل. ولذلك أخبرنا القرآن الكريم بأن الرسل احتجوا على كفار أقوامهم بهذا، فقال سبحانه:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 9–10].

وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)﴾ [العنكبوت: 61–63]، وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)﴾ [الزخرف: 87].

أما الاستدلال على وجود الخالق بالتفكر في مخلوقاته، فباب عظيم من أبواب الإيمان، يكفي النظر في اختلاف بصمات البشر واختلاف حدقة العين والحمض النووي، ومجرات السماوات البليونية وخلايا الإنسان المجهرية، وكلها آيات لا يجحدها إلا ظلوم كفار، قال الحق سبحانه:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)﴾ [إبراهيم: 32-34].

أما عن الاستدلال بالوحي المعجز، فقد أنزل الله سبحانه على نبيه محمد -ﷺ- كتابًا معجزًا، ما زال يتحدى الناس حتى الآن أن يأتوا بمثله، ولم يأتوا، ولا زال التحدي قائمًا.

وفي هذا الكتاب آيات ومعجزات تدل على إعجازه منها مثلًا أنه أخبر بانتصار الروم على الفرس بعد هزيمتهم، وتراهن أبو بكر -رضي الله عنه- مع قريش على ذلك، وكان أمرًا مشتهرًا شائعًا، ولا يمكن إنكار وقوعه.

ومنها مثلًا أن القرآن تنبأ أن أبا جهل وامرأته سيدخلان النار، لأنهما سيموتان كافرين، وكان يمكن لأبي جهل أن يتحدى القرآن بأن يعلن إسلامه، ولكنه منع من ذلك، وتحققت نبوءة القرآن فيه.

وكذلك جاءت السنة النبوية بمعجزات عديدة منها مثلًا ما جاء في الصحيحين وغيرهما أنه لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمين قومًا فطس الأنوف وجوههم كأنها المجان المطرقة ينتعلون الشعر، وقد تحقق هذا في القرن السابع الهجري بقتال المسلمين للتتار، بينما كتب الأحاديث كتبت في القرنين الثاني والثالث، وهي موثقة ومحفوظة، ونسخها الأصلية كثير منها موجود، ولها نسخ كثيرة محفوظة من قبل القرن السابع، فلا يمكن الطعن فيها بالتزوير، أو أن هذا الحديث كتب بعد القرن السابع.

ومنها أيضًا ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ: أن القسطنطينية تفتح قبل روما، وقد حدث، ونحن في انتظار فتح روما إن شاء الله.

ومنها ما ورد في الصحيحين وغيرهما: أنه لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى. وقد خرجت هذه النار فعلًا في سنة أربع وخمسين وستمائة، ووثقها المؤرخون ابن كثير وأبو شامة -رحمهما الله- وغيرهما.

ومنها حديث وبر بن يحنس الخزاعي في المعجم الأوسط للطبراني وفي تاريخ صنعاء للحافظ الرازي، أن النبي -ﷺ- أرسله واليًا على صنعاء، وأمره أن يبني فيها مسجدًا في بستان باذان من الصخرة التي في أصل قصر غمدان مستقبلًا به جبل ضين، وقبلة المسجد بهذه الأوصاف تنطبق على الكعبة تمامًا وبدقة، وهذا أمر لم يكن تحديده ممكنًا في هذا الزمان بتلك الدقة، إلا بوحي معجز، وقد سجل الشيخ عبد المجيد الزنداني -جزاه الله خيرًا- هذه المعجزة في شريط فيديو.

فهذه أمثلة قليلة من معجزات كثيرة جاء بها الوحي المعجز المنزل على رسول الله ﷺ، لا يستطيع الملحد لها جوابًا. وصدق الله العظيم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)﴾ [فصلت: 53].

وأكتفي بهذا القدر الموجز المبسط في الرد على الملاحدة النفاة، وأنتقل للقسم الثاني من الجزء الأول وهو عن لوازم مرتبطة بعقيدة الملحدين الماديين.

***

وأشير هنا باختصار لبعض لوازم الإلحاد:

فأولها: الجبرية المادية

وثانيها: النسبية القيمية

وثالثها: ما بعد الحداثة والعبث.

***

فأما الجبرية المادية

فإن كل ما في الكون –عند الماديين– ما هو إلا تفاعلات كيمائية فيزيائية تعبر عن نفسها في صورة سلوك أو كلام أو أفكار أو حركة كواكب أو غيرها.

وكل هذه التصرفات والأفعال والأحداث يمكن التنبؤ بها، بناءً على قوانين المادة الصارمة، وبالتالي فليس هناك أية قيمة غير مادية في هذا الوجود، لأن كل الأفكار والعقائد والتصورات ما هي إلا تفاعلات مادية.

وبالتالي فالجميع متساو، وليس هناك حق وباطل، ويجب قبول كل شيء على أنه واقع، فليس هناك من معيار يزن الحق والباطل.

وبالتالي ليس للإنسان المادي حرية أو اختيار أو إرادة منفصلة عن الكون المادي، الذي يسير كل شيء، ويفرض قوانينه على كل شيء، والإنسان الذي تنتجه هذه المادة هو إنسان آدم سميث الذي تسيره قوانين السوق، أو إنسان ماركس الذي تتحكم فيه الحتمية الاقتصادية، أو إنسان فرويد وبافلوف الذي تتحكم فيه شهوة الجنس وإفرازات غدده.

فالإنسان في التفكير المادي هو شيء متساو مع أية حشرة أو شجرة أو صخرة، التي قد تختلف معه في تعقيد التركيب، ولكن يسري على الجميع نفس القوانين المادية دون تفرقة.

وبالتالي فهو مجرد كائن لا استقلال له عن النظام الطبيعي المادي.

وبالتالي فعقل الإنسان ليست له أية فعالية، فوجوده ليس ضرورياً لحركة الكون. بل إن العقل والفكر والأحاسيس هي آثار من آثار حركة المادة وتفاعلاتها.

ومن ثم، لا يوجد بالنسبة للعقل المادي خير وشر أو عدل وظلم أو نبل وانحطاط أو أخلاق وفجور، فكل هذه تفاعلات لقوانين واحدة.

فمثلًا ماركس لما كان يتحدث عن انتصار الطبقات الكادحة الحتمي على الرأسمالية، لم يكن يتحدث من باب نصرة المظلومين على الظالمين، بل من باب حتمية التاريخ، التي كان يزعم أنها ستنقل المجتمع الإقطاعي للمجتمع الرأسمالي ثم للمجتمع الاشتراكي ثم للمجتمع الشيوعي ونهاية التاريخ.

والحمد لله أن رأينا نهاية تاريخهم، فقد هرولوا جميعًا اليوم للرأسمالية، ولكن بصورة فاسدة مملوءة بالرشوة والفساد والانحلال.

وأذكر أني لما كنت في السجن في داغستان كان المساجين يحدثونني عن أن لكل قضية ثمن، فإذا دفع المتهم الثمن أو الرشوة المناسبة حصل على البراءة، وإلا فمصيره السجن، حتى أن المترجم في قضيتنا في المحكمة –الذي كان أحد أفراد عصابة الرشوة– سألنا مرةً: أتعرفون لماذا يؤجل القاضي الحكم من جلسة لجلسة؟ لأن أصحابكم لم يدفعوا الرشوة حتى الآن، فكلموهم ليتحركوا قبل فوات الأوان. ولما دفعت الرشوة أخذ كل شريك في العصابة نصيبه، بما فيهم ممثل الادعاء، وحصلنا على ستة أشهر سجنًا بدلًا من الثلاث سنوات التي كان يطالب بها ممثل الادعاء، وبناءً على الرشوة لم يعترض ممثل الادعاء على الحكم.

وفي أحد الأيام رجع أحد نزلاء زنزانتنا من المحكمة حزينًا، فقد حكم عليه بالسجن لخمسة وعشرين سنة، فذهبت إليه لأعزيه وأصبره، فهمس لي: أتعرف لماذا حكم علي؟ فقلت: لماذا؟ قال: لأن أخي تأخر في دفع الرشوة للقاضي.

وعن قريب –إن شاء الله– نرى نهاية الرأسمالية بإذن الله وعونه وتوفيقه.

الفيلسوف الفرنسي ميشيل أونفري:

ونرى أن حضارتنا تنهار، ولا أقول أن هذا جيد أو غير جيد،

فقط أشير إلى أننا لن نفهم العدمية التي نعيشها، إلا إذا استوعبنا أن هذه الحضارة وصلت لنهاية

المطاف، لأنها لم تعد تنتج شيئا.

الحضارة جسد حي، ومن الطبيعي أن نعلن الحداد على الشيء الذي لم يعد موجودًا، حضارات أخرى على استعداد، كالإسلام فهو حضارة بلا حدود.

ولم يعد بوسعنا فعل شيء، دائما أستعمل مثال التيتانك الذي يغرق، فلنكن أنيقين، مع ابتسامة عريضة، ولنشرب النبيذ الجيد مع من نحب، والقارب يغرق فلا معنى لو ضع سدادات.

فالمقصد؛ أن هذا الكون والوجود –في عقيدة الملحدين الماديين– ما هو إلا ذرات وإلكترونات وجسيمات وشحنات وإشعاعات وليس إلا.

وهذا هو الوجه البشع للملحدين النفاة، الذي يحرصون على إخفائه.

فإذا سمعت الملحدين النفاة يتحدثون عن الحرية والمساواة وحقوق الإنسان والانعتاق والعدالة والاضطهاد ... إلخ، وما أكثر ما يتحدثون عن ذلك، فاعلم أنهم كاذبون، يكذبون عليك أو على أنفسهم، أو على الاثنين معًا. لأنهم لا يتحدثون عن أن عقيدتهم مادية جبرية قهرية تخضع الحجر والبشر لقوانين الطبيعة، التي لا تعرف خلقًا ولا قيمًا ولا رحمةً ولا شفقةً، فحسب عقيدتهم، كل أفعالهم وتصرفاتهم هم مجبورون عليها، كما أن خصومهم –في زعمهم– مجبورون بنفس القوانين المادية على كل أفكارهم وتصرفاتهم، ولا فرق بين هذا وذاك.

وإذا أردت أن تكشف حقيقة الملحد، فاسأله عن مرجعيته الفكرية، وقد يخادعك ويقول لك العقل. فلا تنخدع بخدعته، ودقق معه في السؤال ما هي مرجعية هذا الكون؟ فحينئذ يكشف عن وجهه الحقيقي.

وإذا كنت أيها المسلم المؤمن تعبد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، فإنه يعبد قانون الطرد المركزي، وقوانين تجاذب وتدافع الشحنات، وجاذبية نيوتن، ونسبية إينشتاين وقوانين الميكانيكا الحرارية والديناميكا والاستاتيكا ليس إلا.

وأنه لما أبي أن يكون عبدًا لله الرحمن الرحيم البر الرؤوف صار شيئًا حشريًا حجريًا شجريًا كهربيًا مغناطيسيًا.

وقد تسمع من الماركسيين أنهم يتحدثون عن الماركسية الإنسانية، أو أن الاشتراكية ذات نزعة إنسانية، وأنهم مع المستضعفين والمسحوقين والمظلومين إلى آخر هذه الشعارات، ولكن دقق معهم ومع العقائديين فيهم، وليس مع دهمائهم الببغاوات، فسيسقط القناع، وتكتشف حقيقتهم الجبرية المادية.

وهذه الشعارات إما أنهم يستخدمونها لجذب الأتباع أو لخداع الجماهير أو حتى لخداع أنفسهم، أنه ما زال فيهم بقية من إنسانية، ولكن حقيقة عقيدتهم تأبى ذلك.

ونفس هذا التناقض يعيشه الماديون من غير الماركسيين، الذين يزعمون أن لهم قيمًا إنسانيةً أو أخلاقيةً.

وإذا حاصرت المادي بهذا ورفض، فقل له: إن رفضك هذا من أقوى الأدلة على بطلان عقيدتك، لأنك ما زال فيك بقية من إنسانية ترفض الجبرية المادية.

وإذا قال لك: إني أنا شخصيًا لي قيمي الأخلاقية، فقل له: وما رأيك بأخيك المادي الذي يرفض الأخلاق، بأي حجة تحتج عليه؟

فإن قيل إننا رأينا شيوعيين يضحون ويعذبون ويقتلون، فالجواب نعم: وهذا يدل على تناقضهم في سلوكهم مع عقيدتهم، وفي المقابل كان هناك شيوعيون وماديون في غاية الانتهازية الأخلاقية، وكلا السلوكين دفعا بعضًا من الماديين للشك في الإلحاد، والتوبة منه كما سنرى إن شاء الله.

فقد رفضوا هذا الانحطاط الخلقي، الذي تبرره المادية الجبرية الملحدة، ورفضوا هذا الشذوذ الفكري، الذي يسوي بين الحجر والشجر وبين الإنسان والنفس والروح والعقل والأخلاق والمثل.

ولما ظهرت الداروينية تلقفها الماديون، مع أن داروين لم يكن ينكر وجود الله، ولكنه كان علمانيًا يزعم أن الإنسان نشأ من تطور آلي، وأصبح مبدأ داروين في أن البقاء للأصلح هو عقيدة الغرب الاحتلالي، فكما أنه في عالم الحيوانات ليس هناك مجال للأخلاق ولا للتراحم، وأن النوع الأقوى والأقدر على التكيف يبيد الأضعف والأعجز عن التكيف، فإنه من الطبيعي أن ينظر الغرب الاحتلالي لبقية شعوب الدنيا على أنه الأحق بثرواتها واحتلال بلادها.

وكما قال أحدهم: فإنه لا فارق أساسي بين مجموعة من الذئاب تهاجم ظبيًا، وبين مجموعة من الشباب تهاجم فتاةً فتغتصبها وتقتلها.

ولذا فإن التحرر الحقيقي ليس في الجبرية المادية الحتمية، ولكنه في التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

لأن المؤمن الذي يشهد أنه لا إله إلا الله، يتحرر من كل نزعة أو هوى أو ميل بشري أو طبقي أو حزبي أو قومي، ويسلم أمره لله المتعال المنزه عن الميل المستغني عن خلقه.

وكما ذكرت في الحلقة الأولى، فإنه لا معنى للعدل مع المادية الجبرية، التي لا تعرف حقًا ولا باطلًا ولا ظالمًا ولا مظلومًا.

وكذلك فإن معنى الحياد معدوم فيها، لأن معنى الحياد هو التحرر من المؤثرات، وفي عقيدتهم أن كل ما في الكون حتى الأفكار والعواطف تنتجها المادة، وهي آثار من آثارها، فنظر القاضي ما هو إلا فعل من أفعال المادة القاهرة، لا استقلال له.

إذن فالله سبحانه هو الوحيد القادر على العدل المطلق، لأنه أعلم الموجودات، ولأنه سبحانه مستغن بذاته عمن سواه، وهو الفعال لما يريد. وبالتالي فإن شريعته المنزلة هي أعدل الشرائع.

إن الإسلام دين العدل، وهو يتناقض مع الظلم، وهذه مسألة مهمة جدًا، أود أن أفصل فيها قليلًا، لأن لها تعلقًا بأسباب ودوافع الإلحاد عند الكثيرين.

فالله سبحانه وتعالى وصف أمة مُحَمَّد -ﷺ- بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، وقال النبي -ﷺ- فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا"[2].

والذين يبررون للظلم والظالمين هؤلاء بعيدون عن أحكام الإسلام ومنهجه، فسمعنا مثلًا من يدعو الأمة لعدم الجهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مدافعة المتسلط الخليع الفاسق الذي يزني على التلفاز كل يوم نصف ساعة.

إن قائل هذا القول ليس منحرفًا فقط عن أحكام الإسلام، ولكنه متجرد من إنسانيته، هذا يجب أن يرجع لبيت أبيه وأمه ليعلموه الأدب من جديد.

وبأمثال هؤلاء الساقطين تتسلط أمريكا وعملاؤها علينا، وتنتشر فتنة الإلحاد كانحراف مارق ردًا على انحراف فاسد.

وأكتفي بهذا القدر، وأترككم في أمان الله وحفظه.

---

[2] أخرجه مسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحلقة الثانية – الجزء الثاني

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أيها الإخوة المسلمون في كل مكان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

وثاني لوازم المادية الإلحادية هو: **النسبية القيمية**.

أي نسبية وعدم ثبات القيم، فكل قيمة أو مبدأ أو عقيدة قابلة للتغير بتغير الأحوال والظروف، أو بالأحرى بتغيرات المادة التي أنتجت كل هذا.

وهذه سمة ظاهرة في الحضارة الغربية العلمانية، ومن أمثلتها تدمير الشعوب ونزع ثرواتها، الذي يعدونه أمرً مبررًا تمامًا، ولا يعدونه منافيًا للحضارة.

وما قامت به ألمانيا النازية من إبادة اليهود والغجر والعجزة والمعاقين أمر مقبول من أجل المصلحة.

التعليق:

شهدت ألمانيا النازيةُ عمليةَ قتلٍ جماعيٍ واسعةَ النطاق. استهدفتِ المصابينَ بأمراضٍ مزمنةٍ وذوي الإعاقات والاحتياجات الخاصةِ من بينِ السكانِ الألمانِ وباقي دولِ المحورِ النازي وشملت الصغارَ والكبارَ، وقد أصدرَ المستشارُ الألمانيُ النازيُ أدولف هتلر أوامره السرية لبدءِ عمليةِ الإبادةِ، ومع بدايةِ الحربِ العالميةِ الثانيةِ وقعَ مرسومًا رئاسيًا يقننُ هذه العمليةَ بشكلٍ رسميٍ وذلك عام ألفٍ وتسعمئةٍ وتسعةٍ وثلاثين 1939، والمثيرُ للاشمئزازِ أنَّ من وُكِّلَ بهمُ الإشرافُ على هذه البرامجِ الإجراميةِ هم مجموعةٌ من الأطباءِ الذين من المفترضِ بهم علاجُ المرضى وإنقاذُ الأرواح ، وكان تبريرُ هذه الإبادةِ الجماعيةِ أقبحَ من الجريمةِ نفسِها، حيث قُتل مئاتُ الألوفِ من هذه الفئات المجتمعيةِ الضعيفةِ بدعوى أنهم غيرُ منتجينَ ويستهلكون مواردَ الدولةِ التي هي في أمسِّ الحاجةِ لها خاصة في ظروفِ الحرب :

تصريح المؤرخ مايكل تريجينزا:

منذ سنة 1935 سعى هتلر لتبرير القضاء على المعوقين بإصدار قوانين حرب، المسألتان كانتا تسيران في مسارين متوازيين، وتبرير استعمال هذه القوانين هو أن المعاقين كانوا يستعملون مرافق واسعة في مؤسسات الدولة، وهي المرافق التي يمكن أن يستعملها جرحى الجيش الألماني، كما أن المعاقين يكلفون الدولة الكثير من الأموال، لكن لماذا كل هذه المصاريف؟

التعليق:

لم تكن دوافعُ الإبادةِ الجماعيةِ لهذه الشريحةِ المجتمعيةِ المستضعفةِ اقتصاديةً وعسكريةً فقط، بل كانت في الأساسِ دوافعَ إيديولوجيةً وفلسفيةً، تم من خلالها تهيئةُ المجتمع الغربيّ لهذا السلوكِ الدمويّ الموغلِ في التوحشِ؛ وكانت نقطةُ الارتكازِ لهذه الجرائمِ المدمرةِ مبادئُ الفلسفةِ الداروينيةِ البقاءُ للأصلحِ والإبادةُ للأضعفِ وذلك لإنتاجِ مجتمعٍ أفضل.

تصريح المؤرخ مايكل تريجينزا:

الكل يجب أن يكون مؤهلا جسديا وعقليا، ولا يوجد مكان لغير الأصحاء، هذه ليست أفكار نازية، بل هي مستوحاة من إيدلوجيا تحسين الأجناس، التي ظهرت قبل هتلر بوقت طويل، قام فلاسفة نظرية تحسين الأجناس منذ 1920 وحتى قبل ذلك بتهيئة الأرضية لإبادة الأجناس الضعيفة، المسؤولون الصحيون الألمان كانوا فقط ينتظرون شخصا مثل هتلر لإنجاز هذه الخطط المثيرة، وذلك بالقضاء على أي شخص غير منتج؛ إن لم تكن قادرا على الإنجاز، وإن لم تكن قادرا على تقديم شيء للمجتمع، فليس لك الحق في العيش.

التعليق:

لم تكن إبادةُ المعاقين وتعقيمُهم وإبادةُ الأجناسِ الدنيا حسبَ التقييمِ الفلسفيِّ الغربيِّ مقتصرا على ألمانيا النازية بل كانت معتقداتٌ سائدةٌ في كل دولِ الغربِ، كتب رئيسُ الوزراءِ البريطانيُّ الأسبقُ ونستون تشرشل"، في مذكراته:

"إن النموَّ الشاذَ، متزايدَ السرعةِ لطبقاتِ ضعافِ العقولِ والمتخلفين، والذي يصاحبُه كما نعرفُ تقييدٌ مطردٌ في نموِّ كلِّ السلالات القويةِ الرفيعةِ، يُشكّل خطرًا قوميًا وعرقيًا داهمًا على أوروبا، وإنني

أعتقدُ أنه من الضروريّ أن يوقف ذلك الرافدَ الذي يغذي نَهرَ الجنونِ قبل مرورِ عامٍ وإلا أُصيبت أوروبا كلُّها بالجنونِ".

وجاءت أزمةُ كورونا لتعيدَ للأذهانِ أن هذه السياساتُ العنصريةُ الدمويةُ لازالت مسيطرةً على عقولِ ساسات وقادةِ الغربِ، اعتمدَ وريث ونستون تشرشل رئيسُ الوزراء البريطانيُّ الحاليُ بورس جونسون في مقاربتِه الأولى لمواجهةِ فيروسِ كورونا على مبدئِ مناعةِ القطيعِ وهي تسميةٌ تجميليةٌ للنظريات الفلسفيةِ الداروينيةِ المتجذرةِ في عقلِ الحضارةِ الغربيةِ الإبادةُ لضعفاءِ والبقاءُ للأصلحِ.

تصريح بورس جونسون:

من الواضح أن فايروس كورونا coivd -19 مستمر. وسيستمر في الانتشار في جميع أنحاء العالم وبلدنا خلال الأشهر القليلة المقبلة. إنه الآن وباء عالمي، وعدد الحالات سيزداد بشكل حاد، في الواقع العدد الحقيقي للحالات أعلى، وربما أعلى بكثير من عدد الحالات التي تأكدت بالاختبارات.

يجب أن أكون واضحا، ويجب علينا جميعا أن نكون كذلك، هذه أسوأ أزمة للصحة العامة خلال هذا الجيل، هذا المرض أكثر خطورة، وسينتشر أكثر، ولابد لي أن أشارك الحقيقة الصعبة معكم، ومع البريطانيين جميعا، المزيد من العائلات سيفقدون أحباءهم قبل وقتهم.

التعليق:

بل وشجعَ على انتشارِ الوباءِ ليقتلَ أكبرَ عددٍ من الفئاتِ الغيرِ منتجة

تصريح بورس جونسون

لازلت أصافح الجميع وقد زرت مستشفى الذي به مرضى بفايروس كورونا وقمت بمصافحة الجميع في ذلك المكان وسأواصل المصافحة،لأني أعتبر ذلك أمرا ضروريا.

التعليق:

أما ترمب الذي لا يهمه من كورونا إلا متى يعاد فتح الاقتصاد الأمريكي فلم يخف نظرياتِه العنصريةَ الدمويةَ في إفاداتِه الماراثونيةِ بالبيتِ الأبيضَ كان آخرُها اقتراحُه حقنَ المرضى بالموادِ المنظفةِ.

تصريح ترمب:

أرى أن المطهرات تقتل الفايروس في دقيقة، دقيقة واحدة! فهل هناك طريقة يمكننا من خلالها فعل شيء من هذا القبيل؟ عن طريق الحقن في الداخل أو التطهير؟ لأنه كما ترون الفايروس يصيب الرئتين ويؤذيها بشدة، لذلك سيكون من المثير للاهتمام، التحقق من ذلك، سيكون عليكم العودة للأطباء، لكن هذا الأمر يبدو لي مثيرا للاهتمام.

التعليق:

فالبشرُ في مفهومِ الحضارةِ الغربيةِ الماديةِ عبارةٌ عن أوانيَ متسخةٍ تُنظفُ لإعادةِ استعمالِها وتُرمى في الزبالةِ حالَ اليأسِ من تنظيفِها.

فإن كان هذا هو تعاملُ الغربِ مع الفئاتِ المستضعفةِ من بني جلدتِه فكيف كان تعامله مع باقي شعوب الغرب.

وقصف أمريكا لليابان بالقنابل الذرية، وقتلها لخمسة ملايين فيتنامي، أمر تبرره العقلية المادية الداروينية.

ومن قبل هذا إبادة المهاجرين الأنجلوساكسون البروتستانت للهنود الحمر في أمريكا، وإبادة ستالين للشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية). وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا، أما الآن فهو لا يكون سوى نسبة مئوية ضئيلة، وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة لأعدائه الطبقيين مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية، بل تم إبادة كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوه.

ويقدر عدد ضحايا العهد الستاليني ما بين عشرين إلى خمسين مليونًا، مات منهم اثنا عشر مليونًا على الأقل في معسكرات (السخرة)! وبعد حوالي نصف قرن جرت عمليات الإبادة والتطهير العرقي في البوسنة والهرسك والشيشان.

فإبادة الآخرين آلية متكررة استخدمتها الحضارة الغربية العلمانية، إلحاديةً شاملةً كانت أو تعطيليةً.

يقول الشيخ أسامة بن لادن –حفظه الله– في خطابه للشعب الأمريكي في سبتمبر 2007:

"إن أخلاق ثقافة المحرقة هي ثقافتكم، وليست ثقافتنا، بل إن تحريق الكائنات الحية محرم في ديننا، حتى وإن صغرت كالنمل. فما بالكم بالبشر؟ فمحرقة اليهود قام بها إخوانكم في وسط أوروبا، ولو كانت قريبة من بلادنا لنجا معظم اليهود باللجوء إلينا، ودليلي على ذلك؛ ما فعله إخوانكم الأسبان، عندما أقاموا محاكم التفتيش الرهيبة للمسلمين واليهود، فلم يجد أؤلئك اليهود ملاذًا آمنًا إلا باللجوء إلى بلادنا، ولذلك فإن الجالية اليهودية في المغرب هي من أكبر الجاليات في العالم، وهم أحياء عندنا، ولم نحرقهم، ولكننا قوم لا ننام على الضيم، نرفض الذل والهوان، ونثأر من أهل البغي والعدوان، ولن تذهب دماء المسلمين هدرًا، وإن غدًا قريب لمن انتظر. ثم إن إخوانكم النصارى يعيشون بيننا منذ أربعة عشر قرنًا، ففي مصر وحدها ملايين النصارى، لم نحرقهم، ولن نحرقهم".

وطرد أهل فلسطين وقتل مئات الآلاف منهم أمر مبرر في أخلاق الغربيين.

ومناداة وثائق الأمم المتحدة –التي أنشأتها القوى المنتصرة في الحرب العالمية الثانية– بالمساواة بين البشر، ومع ذلك تشرع لسيطرة خمسة من أقوى الدول عليها، أمر لا يرون فيه تناقضًا.

ومن أمثلة اللاقيمية تقنين وتسويغ الإباحية الجنسية والانحلال الخلقي بكل صوره.

حتى لقد صار تقنين الشذوذ الجنسي اليوم من علامات التقدم، بل ومن لوازمه.

وقد شهد بهذا الانحلال والانحطاط الخلقي والنفعية الدكتور عبد الوهاب المسيري شهادة الشاهد الخبير المعاين على رفاقه في الحزب الشيوعي، فقال في كتابه (رحلتي الفكرية– الجذور والبذور والثمار طبعة دار الشروق سنة 2005 ص: 134 و135):

"كنت قد بدأت ألاحظ أن السلوك الشخصي للرفاق كان متناقضًا مع أي نوع من أنواع المثاليات الدينية أو الإنسانية".

ثم يضيف: "والحريات الخلقية التي كانوا يسمحون لأنفسهم بها كانت كاملةً، أي أنهم في واقع الأمر كانوا شخصيات نيتشوية داروينية، لا علاقة لها بالماركسية ولا بأي منظومة أخلاقية، خاصةً أن بعضهم كانت ماركسيته تنبع من حقد طبقي أعمى، وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل في الأرض. بل كثيرًا ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسيًا بحكم وضعه الطبقي، وأنه لو سنحت الفرصة أمامه للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الظالمة لفعل دون تردد، وطلق ماركسيته طلاقًا بائنًا. لكل هذا قدمت استقالتي".

ويذكر أيضًا في ص: 138:

"وحينما كنت في الولايات المتحدة بدأ تشكيل ما يسمى "التنظيم الطليعي". [يقصد في الاتحاد الاشتراكي الذي أسسته حكومة عبد الناصر]. ويضيف: "ومن المؤسف أن معظم أعضاء هذا التنظيم الطليعي لم يكن عندهم أي التزام اشتراكي أو قومي. وقد استقر معظمهم في الولايات المتحدة، ولم يعودوا إلى الوطن ليساعدوا في بنائه".

وقد يجادل الملحد بأنكم أيضًا أيها المتدينون لديكم أصحاب فواحش وفضائح.

نعم، ولكن عقيدتنا تدينهم، أما عقيدتكم فتبرر لهم.

فإن قال: إنني ألتزم الأخلاق. تناقض أولًا، لأن المادية تنفي وجود أي قيم فوق المادة، ثم هو لا يستطيع أن ينكر أن غيره من الملحدين لا التزام عنده، ولا يملك أن يعترض عليه، لأن كلًا منهما عبارة عن كيان مادي تحركه القوانين الصماء.

***

ومن أظهر الأمثلة الشهيرة على هذه الميوعة الخلقية والقيمية؛ موقف الماديين من قضية فلسطين.

1- بدايةً أود أن أؤكد على حقيقة هامة لا يستطيع الملحدون أن ينكروها، وهي أن الأحزاب الشيوعية في مصر والشرق العربي أنشأها اليهود.

التعليق:

ولم يختلف الوضع كثيرا بالنسبة للحزب الشيوعي المغربي، جاء في جريدة الأمل L'ESPOIRE التابعة للحزب:

"نعم، إن الاتحاد السوفياتي على حق في الاعتراف بدولة إسرائيل، كما كان سيعترف في نفس الوقت بدولة فلسطين العربية لو أنها أنشئت طبقا لقرارات الأمم المتحدة".

وجاء فيها أيضا:

وبغض النظر عن كل الحسابات، يجب في النهاية -القبول- كرها أو إيجابا بأن مئات الآلاف من اليهود الذين يشكلون على الأرض الفلسطينية أمة قيد التكوين لهم الحق في وجود وطني خاص. وإنكار ذلك يعني إنكار حق الشعوب في تقرير مصيرها".

وهذه الأحزاب اتخذت موقفين كشفا عن حقيقة دوافعها:

الأول: هو تأييد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ضد الألمان، وكان هؤلاء الحلفاء هم المحتلون الغزاة لبلاد المسلمين أي فرنسا وبريطانيا.

والثاني: أن هذه الأحزاب الشيوعية ذات القيادة اليهودية قد رفضت الحرب مع إسرائيل باعتبارها حربًا تقودها الرأسمالية العربية، وأن البديل هو اتحاد الطبقة العاملة العربية والإسرائيلية ضد الإمبريالية.

وهذه فضائح تاريخية موثقة، لا أرى داعيًا لسرد تفاصيلها.

2- وثانيًا: إن كل التيارات العلمانية -الشيوعي منها وغير الشيوعي- قد أعلنت قبولها لوجود إسرائيل، سواءً منها من كان يرفض سابقًا، أو يقبل.

فقضية فلسطين قد فضحت كل العلمانيين فيما أعلم. فكلهم يقبلون بوجود إسرائيل، ولكن النقاش فيما تبقى من فلسطين، وكان على رأس هؤلاء العلمانيين المضيعين لفلسطين؛ منظمة التحرير الفلسطينية، التي غيرت ميثاقها لتعترف بوجود إسرائيل.

لقد فضحت قضية فلسطين عقيدة العلمانيين وسلوكهم، فإن عقيدتهم التي لا تقبل أية مرجعية ثابتة، وتجعل كل شيء نسبيًا، سمحت لهم بأن يقبلوا بما كانوا يعتبرونه -أو يعتبره بعضهم- خيانةً.

بل وصرح الكثير منهم أن القيم نسبية، ولا يجب أن نتبع الأديان، التي تتجمد على عقائد معينة.

ولأن كل شيء نسبي فكل شيء معروض في السوق للبيع والشراء والمساومة؛ شرفك دينك عرضك أرضك مالك عيالك بل حتى نفسك، فلم تعد الأمانة والصدق والوفاء والإخلاص والشرف والأخلاق والدين لها معنىً محدد، بل كلها تتغير بحسب الهوى والرغبة والمصلحة.

وهذا الاستخذاء العلماني العربي يقابله التوحش والافتراس العلماني اليهودي الصليبي، فاليهود مثلاً بمتدينيهم وعلمانييهم يرون القدس عاصمةً أبديةً خالدةً لإسرائيل، ويعتبرون فلسطين هي (أرض إسرائيل)، ويصرون على بناء المستوطنات، ولا يقبلون بتاتًا بعودة المهاجرين الفلسطينيين.

معلق يهودي:

أحب أن أعرفكم بصديق، رجل الخليل، نوعام عرنون سيرحب بنا في مدينة آبائنا.

المستوطن الغاصب نوعام عرنون:

كل اليهود، من أي مجموعة عرقية والجمعات والتوجهات والألوان، كلهم يشعرون برابط مع جذورهم.

أصدقائي، استمروا في هذه المهمة، من خلا توعيتكم في كل فروعكم في كافة البلاد وفي العالم احملوا هذه الحقيقة، هذا الرابط، هذه المهمة، هذه القداسة.

ويستند الملحدون فيهم مع المتدينين في ذلك إلى العهد القديم المحرف، أي اتفق ملحدوهم ومتدينوهم على عقيدة دينية.

وقد يزعم البعض أن هناك من العلمانيين من يصر على قيام دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس، ويرى أن هذه من الثوابت التي لا يمكن التنازل عنها، ولكن من يزعم هذا يتناسى حقيقتين: الأولى: أن العلماني الذي يقول هذا قد اعترف مسبقًا بإسرائيل، فالدولة الفلسطينية التي يدعو لها، هي دولة قرار التقسيم أو ما هو أقل منها، التي تقوم على ما تبقى من فلسطين، أو ما تسمح به إسرائيل.

والحقيقة الثانية التي يتجاهلها: أنه وأشكاله يؤمنون بأن كل شيء نسبي، إذاً فممكن أن ينقلبوا من الشيء لضده، لأنهم يؤمنون بانعدام الثوابت في الكون.

وعن هذه الميوعة العقيدة، والتدني السلوكي للعلمانيين في قضية فلسطين يقول الدكتور المسيري – رحمه الله– في كتابه (رحلتي الفكرية) ص: 204:

"وقد حضرت ندوةً عقدت ضد التطبيع حضرها ممثلو الأحزاب المصرية، بما في ذلك اليساريون، الذين قدموا ورقةً عن الهوية المصرية، قالوا: إنها كانت فرعونيةً ثم قبطيةً ثم عربيةً ثم حديثةً!. وقولهم هذا يؤكد الصيرورة المستمرة، بل وتنتهي الهوية بشيء عام لا لون ولا طعم ولا رائحة له، يسمى "حديثةً". فأشرت إلى أنه مع هذه التغيرات المذهلة لم لا نتصور تحول هذه الهوية إلى هوية شرق أوسطية، كما ينادي الصهاينة! أليست كل الأمور نسبيةً؟ أليست كل الأمور متساويةً؟".

وهناك بعد آخر لانهزامية كثير من العلمانيين العرب، وهو اتصالهم بإسرائيل وتشجيعهم للتطبيع معها. ومن هؤلاء من يعدهم جميع العلمانيين –سواءً دعاة التطبيع أو مقاوموه– من رموز الفكر ورواد التنوير وأعلام التقدم..... إلخ.

وعلى رأس هؤلاء يأتي نجيب محفوظ، الذي حاز جائزة نوبل لتعرضه للإسلام وللذات الإلهية ولتشجيعه التطبيع مع إسرائيل، حتى أن موشيه ساسون أول سفير لإسرائيل في مصر ذكره في كتابه عن سفارته في مصر، وقال إنه كان من أصدقائه، وأنه كان ينتقد من يعارضون التطبيع، ويقول إنهم يفعلون ذلك بسبب حاجتهم للمال.

وقد صرح نجيب محفوظ مبكراً بتشجيعه للسلام مع إسرائيل والتفاوض معها في أعقاب نكسة ألف وتسعمائة وسبعة وستين.

وأما توفيق الحكيم فكان يتلقى أموالًا من عائدات بيع كتبه في إسرائيل.

وهذا التوجه من كثير من اللادينيين على اختلاف أهوائهم للتكالب على فتات أمريكا والتطبيع مع إسرائيل ظاهرة رصدها العديدون، منهم الدكتور المسيري -رحمه الله- كما سيأتي إن شاء الله.

***

وثالث لوازم المادية هو ما يسمونه ما بعد الحداثة أو فلسفة العبث.

وهي فلسفة ارتبطت بظهور ما يسمى بالنظام العالمي الجديد، وهي جوهره النظري والعقدي.

وقد ذكرت -آنفًا- أن النسبية القيمية كانت أداة الاستكبار العالمي في إبادة الشعوب الأخرى، ولكن بدأ أكابر المستكبرين، يتحولون من الخطاب الاستكباري، إلى خطاب أحدث، خطاب النظام العالمي الجديد، خطاب العولمة الشاملة، التي تسقط الحدود، وتزيل السدود، وتدول المعرفة، وتنشر الديمقراطية والحرية بزعمهم. وتبسط الشرعية الدولية وما أسموه حقوق الإنسان، وسر هذا التحول أن الغرب المستكبر اكتشف أنه لا طاقة له بالاستمرار في الأساليب القديمة، وخاصةً مع تزايد معدلات استهلاكه، وتصاعد المقاومة لسياساته في العالم الثالث عامةً، وصعود الجهاد كقيم وممارسة في العالم الإسلامي خاصةً، فتغير الغرب من أسلوب المصادمة لأسلوب الإغواء، ولكنه اكتشف أن هذا الأسلوب لا يصلح مع الشعوب التي لها قيم متماسكة، وخاصةً مع المسلمين، الذين يدعوهم دينهم للجهاد ضد الظلم والطغيان.

فاتخذ أسلوب تمييع العقائد، وتذويب الفوارق، فالعالم كله يجب أن تحكمه شريعة واحدة (الشرعية الدولية)، ويتحول لسوق واحدة، وتختفي الفروق، ويتصل الجميع ببعضهم عبر الشبكة الدولية والتواصل الاجتماعي، والإعلام الفضائي.

ولا تصبح هناك أية قيمة يسعى لها الإنسان إلا مصالحه الضيقة.وهذا الكلام المخادع لا بد له من فلسفة تبرره، وهي ما يصفه دعاة ما بعد الحداثة بأنهم دخلوا عصر ما بعد الأيديولوجيا وما بعد الحداثة وما بعد التاريخ بل ما بعد الإنسان؛ وأن فكرهم في حالة من السيولة، لا علاقة ثابتة فيه للدال بأية مدلولات أو كليات، أي من الممكن أن يكون إنكار كل القيم هو القيمة الكبرى والنهائية.

وفي النظام الإمبريالي الجديد (عصر السيولة- عصر الاستهلاكية العالمية)، يجب أن يستهلك فيه العالم جميعه، وليس الغرب فقط، ولذا لا مجال للتنمية المستقلة، بل يتحول العالم إلى حالة المصنع والسوبر ماركت، والفقراء في صحارينا وقرانا -الذين لا يحتاجون للهامبرجر ولا للهواتف الذكية- يجب أن يتقدموا بالقدر الكافي، ويخضعوا لإغراء الإعلام بشهواته، وتتزايد ديونهم لتظلهم مظلة البنك الدولي وصندوق النقد.

وعن طريق تصعيد الرغبات الاستهلاكية وإثارة الشهوات، لا يمكن للفقراء تحقيق أي تراكم في رؤوس الاموال، وتختفي الرغبة في السمو وفي الجهاد.

وتظهر (اللامعيارية) كجوهر ولب النظام العالمي الجديد وما بعد الحداثة.

وهكذا بدء اللادينيون حربهم على الكنيسة باسم العقل فانتهوا لتغييب العقل.

وذلك أنه في نمو القوة الاستكبارية الغربية طمح العقل المادي لأن يولد الإنسان المعيارية إما من عقله أو من الطبيعة/المادة. ومن خلال التطور يكتشف الإنسان أن عقله بدون مرجعية يدور حول ذاته ويقدس القوة، وأن الطبيعة/المادة هي حركة بلا غاية أو هدف، ومن ثم لا تصلح مصدرًا للمعيارية. ومن ثم يتم الانتقال من العقلانية المادية إلى اللاعقلانية المادية ومن التحديث والحداثة إلى ما بعد الحداثة، واللامعيارية هي جوهر ما بعد الحداثة.

وهذا ما وقع فيه ما يسمون أنفسهم فلاسفة ما بعد الحداثة، الذين يؤمنون بغياب المرجعية وهيمنة القوة وسيطرة الصيرورة دون الاستناد إلى مرجعية ما ومعيارية ما ومعرفة بعالم عادل فيه كليات ثابتة، وهنا يأتي السؤال: لماذا يكتبون وهم يعرفون أنهم لن يصلوا إلى شيء؟ لماذا لا يغرقون في الملذات والشهوات؟ لأن كل شيء زائل بلا هدف وعبث في عبث؟ الجواب: إن عبثهم الفكري ليس لطلب الحقيقة ولكن لتبرير الغرق في الشهوات.

وهذه هي آخر الحلقات في سلسلة المادية الغربية المنفصلة عن القيمة في غياب الدين.

***

وأكتفي بهذا القدر، في الرد الموجز المبسط على الملحدين النفاة، وقد يكون فيه بعض الجفاف النظري، ولذا فإني في الحلقة القادمة -إن شاء الله- سأوضحه أكثر باستعراض اقتبسات لأقوال كتاب مشاهير، عادوا من الإلحاد للإسلام. وأترككم في أمان الله وحفظه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

معا إلى الله (الحلقة الثالثة)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أيها الإخوة المسلمون في كل مكان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

كنت في الحلقتين السابقتين قد تعرضت ببساطة وإيجاز للرد على الملحدين النفاة، وقد يكون في ذلك الرد بعض الجفاف النظري، ولذلك فإني آثرت أن أوضحه باقتباسات منقولة عن بعض مشاهير الكتاب، الذين عادوا للإسلام من الإلحاد.

وأود أن أوضح هنا بأن هناك من أنعم الله عليهم بالعودة من الإلحاد للإسلام، ولكنهم مع ذلك حملوا معهم بقايا أفكار خاطئة، أو اجتهدوا أو تبنوا آراء خاطئة.

وهذا متوقع وغير مستغرب. ولكن هؤلاء عبروا القنطرة من الكفر للإيمان.

ولا يعني هذا أن نتغاضى عن أخطائهم، بل يعني أن نواصل دعوتهم وتبيين الحق لهم.

لأنه للأسف، مع انتشار الجهل والخلط العقدي والعلمي، ومع انحراف كثير ممن يرجعون لهم في الفتوى بما لديهم من أفكار خاطئة، بل وتصرفات مسيئة. لا يستغرب من هؤلاء أن يقعوا في أخطاء.

ومن المعلوم عن أئمة السلف: أن من قال قولا خاطئا في العقائد أو الأحكام -عن جهل أو تأويل مع حسن قصد واجتهاد في بلوغ الحق- فإنه معذور.

وفي عهد النبي -ﷺ- بال أعرابي في المسجد، فلم يؤاخذه النبي ﷺ، وأمر الصحابة أن يكفوا عنه.

وعند خروج النبي -ﷺ- لخيبر مر بشجرة للمشركين، يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، فقال الصحابة -رضي الله عنهم- للنبي ﷺ: "يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط". فقال النبي ﷺ: "سبحان الله. هذا كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138]، والذي نفسي بيده لتركبنّ سنة من كان قبلكم"[3].

ونحن في فتن شديدة اختلط فيها العلم بالجهل، والحق بالباطل، والسنة بالبدعة، وعلينا أن نسعى في جذب الناس للحق بأيسر الطرق، والشيخ عمر عبد الرحمن -رحمه الله- كانت فيه دعابة، فأذكر مرة

---

[3] أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

أن أحد الإخوة سأله عن العذر بالجهل، فقال له: يا بني العذر اليوم ليس بالجهل، بل بالعلم، لأن العلم قد فسد.

ونحن علينا أن نكون منصفين، كما قال ابن القيم رحمه الله:

وتعرّ من ثوبين من يلبسهما ... يلقى الردى بمذمة وهوان

ثوب من الجهل المركّب فوقه ... ثوب التعصب بئست الثوبان

وتحلّ بالإنصاف أفخر حلة ... زينت بها الأعطاف والكتفان

فنأخذ ما وافق الحق من كلامهم، ونترك غيره.

وهذا يؤكد على ضرورة مواصلة الدعوة، والاستمرار في تبيين الحق.

وأن المعركة التي نخوضها معركة ذات جبهات متعددة عقدية وعلمية وتربوية وقتالية، ولذا فهي معركة الأمة كلها، يجب أن تتضافر فيها جهود جميع المخلصين.

كما أن هذا يدعونا لأن نحمد الله سبحانه على ما من به علينا من هداية وتوفيق، يقول الحق سبحانه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)﴾ [آل عمران: 103]. وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)﴾ [آل عمران: 164].

كما أن لين الكلام –وحسن معاملة الضال المتخبط في الفتن– من أهم أسباب دعوته للحق، قال المولى سبحانه لنبييه موسى وهارون –عليهما السلام– عن أسلوب دعوتهما لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)﴾ [طه: 44]، وفي سيرة النبي –ﷺ– أن صفوان بن أميّة فر من مكة، لما فتحها الله سبحانه لرسوله ﷺ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحيّ رسول الله ﷺ، فأمّنه، وأعطاه عمامته، الّتي دخل بها مكّة، فلحقه عمير، وهو يريد أن يركب البحر، فردّه، فقال: اجعلني فيه بالخيار شهرين. فقال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر.

فإن أصر الكافر بعد بيان الحجة والحكمة في الدعوة، وتكبر، فحينئذ يسن أن يغلظ له في القول ويهدد، كما قال نبي الله موسى –عليه السلام– لفرعون لما أبى الإيمان بعد لين القول وظهور الآيات، يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102)﴾ [الإسراء: 101-102]. أي هالكا. والله تعالى أعلى وأعلم.

ومن الوقائع المعاصرة في ذلك، ما كتبه الأستاذ عبد الحليم خفاجي في كتابه (حوار مع الشيوعيين تحت أقبية السجون) ص: 10 و11:

أنه بعد شهرين من الاستماع اليقظ للشيوعيين من كافة أحزابهم وتياراتهم لتجنب خداعهم، والإصرار على أن يبدأوا بطرح عقيدتهم بداية في المادية الجدلية، وبعد أن جاء الدور على الإخوان، وبعد البداية البسيطة التي احتوت على طرح الأسئلة والملاحظات وطرح عقيدتهم ببساطة، فوجئ الإخوان بمدى الارتباك الذي أصاب الشيوعيين، وكانت المفاجأة التي لم يتوقعوها؛ هي إعلان أربعين من الشيوعيين إسلامهم، وطلبوا من إدارة السجن فصلهم عن الشيوعيين، فنقلوا لقسم مستقل، وكان الإخوان يسمعون أذانهم وصلاتهم للجمعة.

ولم يكن كل المنشقين على درجة متكافئة من الإسلام، بل كان منهم من لا يزال على ماركسيته، ولكنه فقد الثقة في قياداته، بعد أن اكتشف عجزها، وهذه عادة هي الخطوة الأولى في العودة لطريق الحق.

وهذا ما أود أن أستشهد به؛ أن العائد من الضلال لا يعود فجأة، بل قد يعود بالتدريج، وأحيانا تبقى معه آثار من فكره الخاطئ، وهنا تبرز أهمية الدعوة المستمرة.

وقد طلب المولى سبحانه من نبيه –ﷺ– أن يكون مذكرا للكافرين وللمؤمنين، فقال عز من قائل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22)﴾ [الغاشية: 21-22]، وقال سبحانه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)﴾ [الذاريات: 55].

وكتب الأستاذ عبد الحليم خفاجي في نفس الموضع: أن الشيوعيين أصيبوا بارتباك فكري أدى لمجادلات وتضارب فيما بينهم، ثم طلبوا مهلة للعودة للمختصين، وأخذوا في عقد ندوات داخلية في داخل عنابرهم لمناقشة ما عرضه الإخوان، وكان من الشيوعيين المتعاطفين من ينقل للإخوان ما يدور في تلك الندوات.

ويذكر في الصفحات من 60 إلى 68:

أن أحد الإخوان سألهم: ماذا تقولون عن نشأة الحياة؟

فأجابه أحد الشيوعيين: وجدت الخلية الحية الأولى، التي انشعبت عليها سلسلة التطور، نتيجة تفاعلات كيمائية وبيولوجية في عصور جيولجية سحيقة.

فأجابه السائل بما ملخصه أن هذا خروج عن الجدية، التي التزمنا بها، فأنت تؤمن بالعلم، والعلم –أي علم روسيا تحديدا– لم يقطع في هذه القضية على وجه اليقين.

وحيث أن علم روسيا لم يقطع في هذه القضية بقول يقيني، إذن فهي مجرد فرض، وعليكم أن تسلّموا أن سيادة المادة ونشوء الحياة بدون خلق إلهي هو مجرد فرض، وأن وجود الله سبحانه وتعالى وخلقه للحياة يلزمكم أن تعتبروه فرضا مساويا.

فساد الارتباك بينهم، وأجابوا إجابات، منها أننا منشغلون بواقع الطبقة العاملة، بل أبلغ أحد المتعاطفين الإخوان: أنهم بسبب هذا الإرتباك عقدوا جلسات استمرت ليلتين في نقاش متواصل، وأن زعيم حزب (حدتو) أي الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، قد عقد سلسلة من المحاضرات على نطاق حزبه، وركز فيها على أن قضية الإيمان بالله هي قضية شخصية، لا أثر لها على المنهج الجدلي.

بل إن أحد رؤوسهم تحدث في ندوة مفتوحة في عنبرهم؛ أنه قرأ أحد المؤلفات الفلسفية لعالم ماركسي بعنوان (أصل الحياة)، وفيه يقرر المؤلف: أن هذا الكون أثر من آثار قوة كبيرة لها صفات معينة.

وهذه مخادعة منهم لرفاقهم، لأن الشك في عقيدتهم يعني هدم كل نظريتهم، وهو ما تحقق فعلا بانهيار الاتحاد السوفيتي، وكانت هزيمة الشيوعيين في أفغانستان –بفضل الله– هي بداية النهاية لهم، واليوم –

بفضل الله– نرجو أن تكون هزيمة الأمريكان في أفغانستان هي بداية الهزيمة والنهاية للأمريكان – أيضا– بإذن الله وتوفيقه.

الخلاصة أن مقصدي من عرض هذه التجارب هو الاستفادة منها.

ففيها فائدة للملحد، ليعلم أن ما يعانيه من صراعات قد عانى منه غيره، ثم أكرمهم الله بالعافية –ولو غير الكاملة– منه.

وفيه فائدة للمؤمن، يتعرف من خلالها على طرق الوقوع في الإلحاد، وسبل الإنابة منه.

ويستشعر فيها بعظيم نعمة الله عليه، أن عافاه الله من الضلال، يقول الحق سبحانه على لسان المؤمنين: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 43]، وقال عز من قائل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (83)﴾ [النساء: 83].

وفي هذا العرض فائدة خاصة للداعية وللعالم، ليعلم أن المعركة مع الباطل لا تنتهي بمجرد عودة الملحد، بل هناك معركة أخرى رفيقة حليمة حكيمة، تقتضي الاستمرار في نصحه وتوعيته، حتى يتخلص من بقايا ما كان عليه.

***

وأول من أذكره من المهتدين هو الدكتور مصطفى محمود.

سجل مصطفى محمود رحلته من الإلحاد للإيمان في كتابه (رحلتي من الشك إلى الإيمان) الذي صدر عام ألف وتسعمائة وسبعين ميلادي.

وفي الكتاب يبدأ القصة في الصفحات من 7 إلى 9:

بأنه لما كان في سن الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة بدأ يتساءل في تمرد:

"تقولون إن الله خلق الدنيا، لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق". ثم يقول: "فلتقولوا لي إذن من خلق الله؟ أم أنه جاء بذاته، فإذا كان قد جاء بذاته، وصح في تصوركم هذا الأمر، فلماذا لا يصح في تصوركم –أيضا– أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق".

ويعلق على تصرفه بقوله: "وتغيب عني –في تلك الأيام– الحقيقة الأولى وراء ذلك الجدل. إن زهوي بعقلي –الذي بدأ يتفتح– وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج –التي انفردت بها– كان هو

الحافز دائما، وكان هو المشجع، وكان هو الدافع، وليس البحث عن الحقيقة. لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت في عبادة نفسي".

ثم يقرر أنه قد غابت عنه أصول المنطق، وانه كان يتناقض مع نفسه، فيقول:

"إذ أعترف بالخالق، ثم أقول ومن خلق الخالق، فأجعل منه مخلوقا في الوقت الذي أسميه خالقا، وهي السفسطة بعينها.

ثم إن القول بسبب أول للوجود يقتضي أن يكون واجب الوجود في ذاته، وليس معتمدا ولا محتاجا لغيره لكي يوجد. أما أن يكون السبب في حاجة إلى سبب فإن هذا يجعله واحدة من حلقات السببية، ولا يجعله سببا أول".

وذكر أن الأمر استغرق منه ثلاثين سنة ليقطع االطريق الشائكة من الإلحاد إلى اليقين.

ثم كتب: "ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة، وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل، ولقادتني الفطرة إلى الله.

ولكني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء، وضعف صوت الفطرة حتى صار همسا، وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغرورا واعتدادا".

ويذكر في ص: 11:

أنه برغم ماديته وانطلاقه من المحسوسات، التي تنكر كل ما هو غيب، فإنه لم يستطع أن ينفي أو يستبعد القوة الإلهية، لأن العلم كان يقدم له صورة عن العالم في غاية الإحكام والانضباط. فتصور أن الله هو الطاقة الباطنة في الكون التي تنظمه في منظومات جميلة، وهو الحركة التي كشفها العلم في الذرة، وهو الحيوية الخالقة في كل شيء.

ويذكر من ص: 12 إلى 16 أنه بهذا سقط في فكرة وحدة الوجود الهندية وفلسفة سبينوزا.

ولكنه اكتشف أنها شطحة صوفية خرافية، لأن التشابه بين المخلوقات لا تعني أنها هي الخالق، بل تعني أن خالقها واحد.

وأن النظرة العلمية تقول لنا: إن هذا الخالق هو عقل كلي شامل، يلهم مخلوقاته ويهديها ويسلحها بوسائل البقاء.

وأن هذه النظرة دلته على أن الخالق سبحانه:

"متعال على مخلوقاته، يعلم ما لا تعلم، ويقدر على مالا تقدر، ويرى ما لا ترى.

فهو واحد أحد قادر عالم محيط سميع بصير خبير، وهو متعال يعطي الصفات، ولا تحيط به صفات".

ثم يقول: "وهكذا قدم لي العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله".

ومما استوقف مصطفى محمود: معجزة التفرد في البشر، فيذكر في ص: 21:

أنه رغم أن الجميع من خامة واحدة كما يقول، إلا أن لكل منا فرديته المستقلة، فله تركيبة خاصة من الأحماض النووية الدي إن إيه والآر إن إيه، ولكل منا بصمات تختلف عن الآخر حتى في التوائم، ولا تتشابه بصمات شخصين منذ بدء الخليقة حتى الآن.

وكان مصطفى محمود يتصور أن العلم يكشف كل شيء، وأن الروح هي الجسد، والعقل هو المخ، والعواطف والشخصية هي ردود الفعل ومجموع الأفعال المنعكسة، والعاطفة –في نهاية الأمر– جوع جسماني، ولكنه تبين بطلان كل ذلك، فكتب في ص: 23 إلى 25:

"وكنت أتصور أني يمكن أن أفهم الروح إذا شرحت الجسد، إذ لا فرق بين الاثنين.

الروح هي البدن، والعقل هو المخ، والشخصية هي ردود الفعل ومجموع الأفعال المنعكسة، والعاطفة –في نهاية الأمر– هي جوع جسماني".

ثم يستدرك: "لو قلنا هذا فنحن أمام تفسير مادي متهافت".

ويضيف: "إن الإنسان ليضحي بلقمته وبيته وفراشه الدافئ في سبيل أهداف ومثل وغايات شديدة التجريد: كالعدل والحق والخير والحرية، فأين حافز الجوع والجنس هنا؟

والمحارب المقاتل في الميدان الذي يضحي بنفسه على مدفعه في سبيل غد لم يأت بعد، أين هو من التفسير المادي؟

إننا أمام إثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقة متجاوزة وعالية على الجسد، وليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة في مرآة داخلية.

تلك الإرادة الهائلة التي تدوس على الجسد وتضحي به هي حقيقة متجاوزة عالية بطبيعتها، وآمرة ومهيمنة على الجسد، وليست للجسد تبعا وذيلا.

وإذا كنت أنا الجسد فكيف أتحكم في الجسد وأخضعه؟

وإذا كنت أنا الجوع فكيف أتحكم في الجوع؟".

ثم يذكر: إن تلك الهيمنة هي الشهادة على مفارقة ذلك العنصر وتعاليه على الجسد.

ثم يضيف: "عن طريق النفس أتحكم في الجسد، وعن طريق العقل أتحكم في النفس، وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده.

هذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه هو الإثبات الواقعي، الذي يقودنا إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه، وليست ذيلا وتابعا".

ثم يسأل –الذي يقول إن الإنسان مجموعة وظائف فسيولوجية– أين يذهب ذلك الإنسان أثناء النوم؟ حيث كل وظائفه الفسيولوجية مستمرة، ولكنّ الإنسان غائب، إنه أشبه بشجرة في حياة بدائية أو حشرية، وإن النوم ثم اليقظة هو النموذج المصغر للموت ثم البعث.

وفي ص: 39 و40 يرفض مصطفى محمود الحتميات المادية كحتمية الصراع الطبقية وحتمية التاريخ، ويؤكد على أنها لا تنطبق على الإنسان ولا يمكن أن تتنبأ بالغيب، ولا يجوز تطبيقها على المجتمعات والتاريخ. فكتب:

"إنما تأتي فكرة الحتمية من التصور الخاطئ للإنسان على أنه جسد بلا نفس وبلا روح وبلا عقل، واعتبار النفس مجرد مجموع الوظائف العليا للجهاز العصبي.

ومن الواقع المشاهد من خضوع الجسم للقوانين الفسيولوجية يستنتج المفكر المادي أن الإنسان والإنسانية بأسرها مغلولة في القوانين المادية.

وهكذا يجعل من الإنسان كتلة مادية أشبه بكتلة القمر محكومة في دورانها حول الأرض والشمس بالحتميات الفلكية.

وينسى أن الإنسان يعيش في مستويين:

مستوى الزمن الخارجي الموضوعي المادي؛ زمن الساعة، وفي هذا الزمن يرتبط بالمواعيد والضرورات الاجتماعية، ويعيش في أسر القوانين والحتميات.

ومستوى زمنه الخاص الداخلي؛ زمن الشعور وزمن الحلم".

وأنه في هذا الزمن حر من الحتميات المادية، بل هو قادر على أن يثور على المجتمع والتاريخ، فيغيره من أساسه.

ثم يضيف عن هذه النفس التي تختلف عن الجماد: "هي تفرض نفسها على الواقع الخارجي وتغيره، وتفرض نفسها على الجسد، وتحكمه وتقوده وتعلو على ضروراته، فتفرض عليه الصوم والحرمان اختيارا، بل قد تقوده إلى الموت فداء وتضحية.

مثل هذه النفس لا يمكن أن تكون مجرد ناتج ثانوي من نواتج الجسد، وذيلا تابعا له، ومادة تطورت عنه.

مثل هذه النظريات المادية لا تفسر لنا شيئا.

وإنما لا بد أن نسلم أن هذه النفس عالية على الجسد متعالية عليه، وأنها من جوهر مفارق لجوهر الجسد وحاكم عليه، فهي في واقع الأمر تستخدم الجسد كأداة لأغراضها".

ويقر في ص: 54:

بأن "الله الخالق العادل الملهم، الذي خلق مخلوقاته وألهمها الطريق (وهو لباب الأديان كلها) هو مبدأ أولي يصل إليه العقل دون إجهاد، وتوحي به الفطرة بداهة.

وإنما الافتعال كل الافتعال هو القول بغير ذلك.

والإنكار يحتاج إلى الجهد كل الجهد، وإلى الالتفاف والدوران واللجاجة والجدل العقيم، ثم نهايته إلى التهافت، لأنه لا يقوم على أساس، ولأنه يدخل في باب المكابرة والعناد أكثر مما يدخل في باب التأمل المحايد النزيه والفطرة السوية.

وهذا هو ما قالته لي رحلتي الفكرية الطويلة، من بدايتها المزهوة في كتاب (الله والإنسان) إلى وقفتها الخاشعة على أبواب القرآن والتوراة والإنجيل".

وفي ص: 86 وما بعدها يسخر من الذين يزعمون أن هذا العالم البديع المحكم حدث صدفة، ويصف زعمهم بالسذاجة، فكتب أن هذا مثل قولنا:

"إن انفجارا في مطبعة أدى إلى أن تصطف الحروف على هيئة قاموس محكم.

والكيميائي المغرور الذي قال: إيتوني بالهواء والماء والطين وظروف نشأة الحياة الأولى وأنا أصنع لكم إنسانا. هذا الكيميائي قد قرر احتياجه سلفا لكل العناصر والظروف، وهو اعتراف بالعجز عن تقليد صنعه الخالق، الذي خلق الشيء وخلق ظروفه أيضا.

ولو أنا آتيناه بكل هذه العناصر وكل تلك الظروف، ولو أنه فرضا وجدلا استطاع أن يخلق إنسانا، فإنه لن يقول: صنعته الصدفة، بل إنه سوف يقول: صنعته أنا".

ويبين أن التفكير المادي الذي يلجأ للصدفة لتفسير ترقي الموجودات –من العناصر الأولية للحياة المعقدة– عبر سلسلة طويلة من الصدف هو أمر غير معقول، لأنهم كلما أعيتهم الحيلة قالوا إنه حدث صدفة.

وهل الصدفة تفسر عجائب الحياة مثل االطيور التي تهتدي لأوطانها على بعد آلاف الأميال.

وذكر أن الفكر المادي وجد نفسه في مأزق أمام هذا التفسير الساذج، فزعم أن الحياة نشأت من حالة ضرورة، ثم تعقدت هذه الضرورة.

وذكر أن هذا تلاعب بالألفاظ، فمكان الصدفة وضعوا كلمة (تعقد الضرورة).

ثم تساءل عن هذا الزعم بتعقد الضرورة، فكتب في ص: 89:

"كيف ينمو الحدث الواحد إلى قصة محبوكة بدون عقل مؤلف؟

ومن الذي أقام الضرورة أصلا؟

وكيف تقوم الضرورة من لا ضرورة.

إنها استماتة العقل الخبيث المكابر، ليتجنب صوت الفطرة، الذي يفرض نفسه فرضا ليقول: إن هناك خالقا مدبرا".

وكتب عن هذا الخالق المبدع لهذه البدائع بأنه: "الله الذي وصفته لنا الأديان بأسمائه الحسنى، ولا سواه، وليس القانون الأصم، الذي تقول به العلوم المادية البكماء، ولا إله أرسطو المنعزل، ولا إله أفلاطون القابع في عالم المثل، ولا هو الوجود بكليته كما تصور إسبينوزا وأتباع وحدة الوجود.

وإنما هو: الأحد الذي ليس كمثله شيء".

***

وثاني من أذكره من المهتدين هو الدكتور عبد الوّهاب المسيري.

يحكي المسيري في كتابه (رحلتي الفكرية ص: 130 و131) عن قصة بداية إلحاده.

أنه في السنة النهائية من الدراسة الثانوية بدأت بعض الأسئلة تلح عليه بشدة، وكان من أهمها أسئلة عن الشر في العالم والحكمة من وجوده، وعن أصل الكون، وأنه لم يجد من يجيبه عليها إجابات مقنعة.

وسنرى فيما بعد -إن شاء الله- أن وجود الشر- الذي كان من دوافع إلحاده- هو الذي دفعه للإيمان، لما رآه من استفحال الشر في الحضارة الغربية.

ثم تحول للدراسة في جامعة الأسكندرية، وهناك تعرف على الفكر الماركسي، وأصبح شيوعيا ملحدا.

وفي ص: 133 يحكي أنه انضم لحزب (حدتو).

وفي ص: 134 يروي صدمته من الانحطاط الخلقي وسط أعضاء الحزب، كما ذكرت من قبل، ولهذا استقال من الحزب، ولكنه بقي ماركسيا صديقا لهم.

ثم سافر لأمريكا وحصل على الماجستير ثم الدكتوراه، وفي أمريكا بدأت رحلة عودته الطويلة للإيمان.

المهم أن الذي نستفيده من هذا؛ أن الشبهات -التي دفعت المسيري للإلحاد- كان الرد عليها بسيطا، لو أنه لقي عالما فاهما، ولو أنه كان صادقا، في طلب الحق، وهو أمر بينه وبين ربه، لا يمكننا الاطلاع عليه.

لأنه في رحلته للعودة إلى الإيمان أجاب بالتفصيل عن كل هذه الشبهات.

كما نستفيد أن دعاة العقيدة الماركسية كانوا ينشطون مستغلين الظلم الاجتماعي، وكانوا يعملون سرا وبالتدريج، وكانوا يبتعدون عن المواجهة، وهو أمر جربته شخصيا، بل واعترف به المسيري نفسه، حيث ذكر في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول- الجزء الرابع- الباب الأول- تحت عنوان: (إشكالية العلمانيتين: علمانية جزئية وعلمانية شاملة) ما نصه:

"ومع هذا، تجب الإشارة إلى بعض الأفراد ممن يتبنون نماذج علمانية شاملة ويستخدمون ديباجات جزئية عن وعي وبدهاء مقصود، لأن الناس ينفرون بفطرتهم الإنسانية من العلمانية الشاملة بسبب وحشيتها وعدميتها".

واليوم بعد أن انهارت الشيوعية فكرا وواقعا، تلون الإلحاد بلون ليبرالي تحرري، ويسعى لاستغلال بعض ما يعتبره ظلما لمهاجمة الإسلام، والعلاج بأمرين:

الأول: أن نبين ونوضح ونؤكد أن الإسلام ضد الظلم، وأن يحمل المسلمون راية الدفاع عن المظلومين كما أمروا بذلك.

والثاني: أن نواجه هؤلاء الملاحدة فكريا وعمليا، بكشف تهافت عقائدهم، وبمجاهدة الأنظمة والكيانات التي تحميهم، وهذا هو منهج القرآن.

وفكر هؤلاء الملاحدة متهافت جدا، وينكشف بسرعة لدى المواجهة بفضل الله، وينبني أساسا على تشجيع العلمانية، التي هي الأساس الركين للدولة الوطنية، التي قسمت دولة الخلافة لاثنتين وخمسين شظية. بعضها لا تستطيع أن تراه على الخريطة إلا بعدسة.

والمؤسف جدا أن بعض الحركات والأشخاص -الذين ينتسبون للعمل الإسلامي- ينادون بأطروحات علمانية وطنية تفرق بين المسلمين، وتوحد بينهم وبين الكافرين على أساس الوطن والأرض.

وكثير من هؤلاء -إن لم يكن أكثرهم- تسببوا في ضياع ثورات الشعوب فيما سمي بالربيع العربي.

إذن لا بد من المواجهة الشاملة للجاهلية الحديثة، مواجهة عقدية فكرية لدعاة الضلال، ومواجهة تعليمية تربوية للمسلمين، ومواجهة جهادية قتالية للأنظمة التي تؤسس للفتنة، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وقال عز من قائل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39]. وقال النّبيّ صلى الله عليه وسلّم: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم"[4].

وهذه المواجهة الشاملة لا بد فيها من تضافر جهود جميع المخلصين في الأمة، ليسعوا بكل إمكاناتهم لإدارة الصراع العقدي والعلمي والتربوي والقتالي مع أكابر المجرمين.

***

وأكتفي بهذا القدر، وفي الحلقة القادمة -إن شاء الله- نسير مع المسيري في رحلته الطويلة في عودته للإيمان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[4] أخرجه النسائي، وصححه الألباني.

صفقة القرن أم حملات القرون (الحلقة الرابعة)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه أيها الإخوة المسلمون في كل مكان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

كنت في الحلقات الثلاث السابقات قد وصلت إلى قصة إلحاد الدكتور عبدالوهاب المسيري وفي هذه الحلقة أتناول باختصار قصة عودته للإيمان كما رواها يذكر الدكتور المسيري في كتابه رحلتي الفكرية صفحة مئة وعشرين وصفحة مئة وثمانين، أن أول الحوادث التي هزت عقيدته المادية هي التصادم بين تلك العقيدة وبين سلوكه حينما قرر أن يتزوج زوجته الدكتورة هدى حجازي وهي في ميزان المركسية برجوازية فبينما هو مركسي مادي ونصحه مسؤوله الحزبي بالإبتعاد عنها ولكنه أقدم على الزواج منها مما شكل هزة في عقيدته ومدى ملائمتها لسلوكه.

واستمرت هذه الهزات تشكل تشققات في فكره إلى أن وصلت لمرحلة التطاحن كما وصف التطاحن، ثم يذكر أن الهزة القوية الثانية أصابته مع ولادة ابنته الأولى نور وأنقل هنا ما ذكره الدكتور المسيري بنصه في صفحة مئة وثمانين ومئة وواحد وثمانين وهو كلام يؤكد على قوة دليل الإيمان الفطري واكتساحه للشبهات المادية العقلية يقول الدكتور المسيري: "وقد حدثت الهزة القوية الثانية حينما رزقني الله ابنتي نور كانت لحظة ولادتها لحظة فارقة في حياتي إذ وجدت نفسي أنا العقلاني المادي ، وجها لوجه مع معجزة جعلتني أغرق في التأمل، طفلة تولد وبعد ولادتها بلحظات تنظر بعينيها الواسعتين حولها ثم ترتبط بأمها على الفور بطريقة لا أفهم كنهها أمها زميلتي في الجامعة تتحول بين يوم وليلة إلى أم تطعم الصغيرة ثديها وترتبط بابنتها ارتباطا جنونيا، لم أرى مثلها وتبدأ تتحدث بلغة جديدة تماما علي زميلتي وزوجتي أصبحت أما ودخلت عالما جديدا أقف أنا على أطرافه دهشا، في بداية الأمر اصبت بالغثيان وأحسست بالهجران كيف يمكن لزميلة الدراسة أن تتحول بهذا الشكل وتتركني وحيدا؟ وتدريجيا تجاوزت هذا الإحساس وبدأت أتأمل في هذا الكائن الجديد الذي دخل حياتي هل يمكن أن يكون كل هذا نتيجة تفاعلات كيماوية وانزيمات وغدد وعضلات؟ هل هذا الكل الإنساني هو جماع أعضائه المادية وثمرة المصادفة أو أن هناك شيئا ما يجاوز

السطح المادي؟ هل الإنسان فعلا جزء من الطبيعة لا يفصله فاصل عنها خاضع لقوانينها وأهوائها كما يقول المنهج المادي الصارم، أو أن فيه أسرارا وأغوارا وفوجئت بأنني برغم شكوكي الفلسفية وتصوراتي المادية، أكتب قصيدة تحاول استكناء هذا الحدث من خلال صورة شعرية دينية، إذ أن الصور المادية لم تعد كافية فقد أصبحت ظاهرة الإنسان بالنسبة لي ظاهرة غير مادية غير طبيعية، معجزة، معجزة بكل المعايير المعروفة لدي وهكذا ظهر الإنسان إنسان أو الإنسان الرباني فيما بعد".

ويحكي الدكتور المسيري في صفحة مئة واحد وثمانين، كيف توالت الأحداث بعد ذلك لتهز نموذجه المادي المهيمن ولتثبت له، أن في الإنسان أسرارا ومجهولات لا يستطيع العلم المادي أن يفسرها منها ما اسماه ليلة بكاء الطفلة، أعن هذه الليلة يقول، حينما استيقظت ابنته وهي لم تكمل عامين بعد وهي تبكي بصوت عال دون ما سبب واضح وكان لبكائها رنين خاص لم يفهمه ولا أمها فيه مزيج من الفزع والحزن ولما حملتها أمها وهدأت من روعها سكنت ولكنه كلما حاول الإقتراب منها فزعت وعادت لتبكي من جديد، فاضطر للإبتعاد عنها حتى نامت دون أن يدري سر ما حدث، وحادث الطفل العجيبة لأمه، وكان الحادث الثاني حينما أبلغته زوجته أنها قررت ألا تستمر في دراستها العليا رغم اتفاقهما المسبق حتى لا تقصر في رعاية ابنتها مما جعل قناعاته السابقة عن حصر الإهتمام في الإنجاز المادي تهتز، وفي صفحة مئة واثنان وثمانين يحكي عن المعجزة التي أدركها لما ولد له ولده ياسر، إذ اكتشف أن شخصيته مختلفة تماما عن أخته نور فبينما هي تظهر مهارتها اللغوية، كان ياسر يهتم بالأرقام والرياضيات، مما رسخ في ذهنه حقيقة الإنسان المعجزة، وأهمية دور الأسرة في تنشئة الطفل، وهنا يعني أتوقف عن السرد لأسأل سؤالا.

هل كل هذا كان غائبا عن الدكتور عبد الوهاب المسيري حينما توجه للإلحاد، أم أنها الحجب التي يصنعها الإنسان لتحجب البصيرة التي يدركها أبسط إنسان عادي.

الحادث الثالث الهام الذي أثر في المسيري هو لقاؤه بالشهيد كما نحسبه الحاج مالك الشهباز رحمه الله الشهير بمالكوم إكس، فيروي الدكتور المسيري في صفحة مئة أربعة وثمانين ومئة خمسة وثمانين، أنه بدأ يدرك دور الدين في الواقع المادي وليس فقط باعتباره كما يقول غيبا مغلقا على حد تعبيره، ثم بدأ يتعرف على ما أسماه التجربة الدينية الإسلامية ليفهم منطقها الداخلي ويذكر أنه قابل الحاج

مالك الشهباز رحمه الله، وكانت لتلك المقابلة أعمق الأثر في نفسه، ثم كتب أن أحد المؤرخين الأمريكان السود طلب منه أن يكتب دراسة عن أثر الإسلام في حياة مالك الشهباز، وأنه أي المسيري لم يكن يعرف الكثير عن الإسلام إلا ما وصفه بالنص، ما يعرفه أي مسلم يمارس شعائر عقيدته دون تعمق في الأبعاد الفلسفية.

والمعرفية، الذي كان يعرفه المسيري أنا يعني أؤكد على هذا النص ما يعرفه أي مسلم يمارس شعائر عقيدته دون تعمق في الأبعاد الفلسفية والمعرفية، هذه عبارات مهمة جدا سأعود للتعليق عليها إن شاء الله.

ونمضي مع المسيري الذي يذكر أنه بعد قراءة سيرة مالكوم إكس أدرك كما أنقل عنه هنا بالنص: "مدى عمق الإسلام فيه كمثالية مجاوزة لعالم المادة كما، أدركت دور الإسلام التثويري التنويري في حياته." ويذكر الدكتور المسيري أن حياة مالكوم إكس تصل إلى لحظة القمة أثناء حجه لمكة، وأنا هنا أرى أن أتوقف لأبين من هو مالك الشهباز رحمه الله وكيف أثر فيه الإسلام وجعله مؤثرا في غيره، وبالمناسبة أيضا فإن مالكوم إكس كان ملحدا.

مالكوم إكس أمريكي إفريقي ولد باسم مالكوم ليتل، ثم تورط في أسوأ أنواع الجرائم، فقد كان تاجر ومدمن المخدرات وقوادا ولصا ووصل لحد الإلحاد فقد كان يسب الأديان ويمتلئ كلامه بالكفر والزندقة، وفي حياته في الشوارع كان يلقب بالأحمر القذر، ثم انتهى به الأمر في السجن ومن كثرة سبه للرب والإنجيل لقب في السجن بالشيطان، وهو نفسه يحكي عن نفسه في كتاب مالكوم إكس سيرة ذاتية صفحة مئة وثلاثة، أن أخته إيلا أفزعها ما وصل إليه من كفر وإلحاد وفظاظة وهرطقة.

وقبل خروج مالكوم إكس من السجن إلتقى فيه بزنجي مثقف اسمه بيمبي يقول عنه مالكوم إكس في كتاب مالكوم إكس سيرة ذاتية صفحة مئة وثمانية عشر ومئة وتسعة عشر: "في تشارلز تاون عرفت في ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين سجينا أثر في تأثيرا إيجابيا كان زنجيا بنمش يدعى بيمبي." ثم يضيف: "كان يقرأ كثيرا وبهرني فيه أنه بكلامه يفرض على الناس احترامه .': ثم يضيف و:"بدأت أسعى إلى التقرب إليه بعدما تكلم في الدين فزعزع كفري زعزع كفري، يعني أنه مالك الشهباز كان

كافرا ملحدا في هذا الوقت، وشككني في الفلسفة الإلحادية إذا صح هذا التعبير كان قد قارع حجتي بكلام نقي فتوقفت من يومها عن السب." من يومها توقف عن سب الدين.

وفي السجن تعرف عن طريق مراسلة إخوته له بجماعة أمة الإسلام، وهي جماعة يقودها رجل يدعى إليجا مُحَّد، إليجا مُحَّد كان يزعم أن رجلا اسمه فارد هو الله وأنه أرسله برسالة للسود في أمريكا، وأن الشيطان هو الرجل الأبيض وأنه لا بعث ولا جنة ولا نار ورغم كل هذه الكفريات، فإن إليجا مُحَّد كان مصلحا إجتماعيا استطاع أن يخرج ملايين الأمريكان الأفارقة من حياة الشوارع والتشرد والجريمة والإدمان وينظمهم ويدفعهم للعمل والدراسة والترقي الإجتماعي والمطالبة بحقوقهم من البيض.

خالد ياسين: "ولكن على كل حال لابد لنا أن نعترف بالفضل فإن إليجا مُحَّد رغم أنه كان كذابا ورغم أنه لم يكن نبيا ورغم أنه كان يكذب على الله سبحانه وتعالى، كان مصلحا إجتماعيا، ما المصلح الإجتماعي؟

المصلح الإجتماعي هو الرجل الذي يساعد الناس لينهضوا من أحط درجات المهانة الإجتماعية حتى يصلوا لمرحلة احترام النفس، لقد كان إليجا مُحَّد ناجحا في دعوة الرجال والنساء الذين كانوا سكيرين مدمني مخدرات بغايا قوادين مجرمين، فنجح في تحويلهم وتطهيرهم وجعلهم أناسا منتجين آباء أمهات رجال أعمال متميزين ومحترمين رجال مثل مالكوم، لأن مالكوم لم يكن الشخص الوحيد مثل حالته، هذا ما عليكم أن تدركوه، لقد كان هناك الآلاف مثل مالكوم إكس".

وبعد خروج مالكوم إكس من السجن، إلتحق بجماعة أمة الإسلام وغير اسمه من مالكوم ليتل لمالكوم إكس، ليتخلص من عادتهم من اسم العائلة الذي يربط أجداده بسيدهم الأبيض كما كانت عادة الأمريكان، أن ينتسب العبد باسم عائلة سيده، وأصبح مالكوم إكس من رموز تلك الجماعة والمتحدث باسمها وتغيرت حياته تماما في أمة الإسلام، فترك كل الموبقات التي كان قد تورط فيها في مرحلة الإجرام.

ثم اختلف مع تلك الجماعة وانفصل عنها وبدأ يقترب من الإسلام الحقيقي الصحيح وقام برحلة الحج في جدة، أعلن أسلامه ونطق بالشهادتين، وتأثر بالحج تأثرا كبيرا قلب حياته رأسا على عقب وعن هذا الأثر كتب عدة رسائل من البقاع المقدسة ذكرها في صفحة مئتين وواحد ستين من كتاب مالكوم إكس سيرة ذاتية، منها رسالة لزوجته بيتي قال عنها: "كنت حتى ذلك الحين قد صرت في ذهني رسالة حول انعدام الإحساس باللون في العالم الإسلامي الراجع إلى التدين والإنسانية، وهما الصفتان اللتان كانا أثرهما علي يزداد يوما بعد يوم ويغير تفكيري، وكانت تلك الرسالة بالطبع لزوجتي بيتي ولم أشك لحظة واحدة في أنها بعد ما تفيق من الصدمة ستغير موقفها وتتبنى رأيي وأنها ستفهم أن الله هداني في أرض مُحَمَّد وإبراهيم إلى الإسلام الحقيقي وفهم المعضلة العنصرية في أمريكا فهما أفضل".

ومنها رسائل لأصدقائه المقربين ومنهم ولس مُحَمَّد ابن إليجا مُحَمَّد، الذي كتب عنه مالك الشهباز أنه كان قد عبر لي عن اقتناعه بأن أمة الإسلام لن ينقذها إلا الإسلام السني، كما كتب رسالة لمساعديه في مسجد هارلن بنيويورك، قال عنها : "في تلك الرسالة كتبت من صميم قلبي في حياتي لم أشهد أصدق من هذا الإخاء بين أناس.

من كل الألوان والأجناس، أذهلوني خلال الأسبوع الماضي بما رأيته منهم من لطف، لقد من الله علي فحججت البيت وطفت به، إلى أن يقول، وشربت من ماء زمزم وسعيت بين الصفا والمروة وصليت في منى ووقفت بعرفات مع عشرات الآلاف من الناس القادمين من كل أرض، والذين يمثلون كل درجات الألوان البشرية من الشقر ذوي الأعين الزرق إلى الأفارقة السود، فأديت معهم المناسك نفسها في إخاء ووحدة كنت أحسب من تجربتي في أمريكا، أنهما مستحيلا بين الإنسان الأبيض والأسود، إن أمريكا في حاجة لفهم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يملك حل مشكلة العنصرية فيها، ويضيف، وخلال الاثنين عشر يوما التي قضيتها في العالم الإسلامي، أكلت من إناء واحد وشربت من كأس واحدة ونمت على فراش واحد وأن أعبد ربا واحدا مع مسلمين، عيونهم زرق كأشد ما تكون الزرقة وشعورهم شقراء كأشد ما تكون الشقرة وجلدهم الأبيض كأشد ما يكون البياض، رجال وجدت في أقوالهم وأفعالهم الإخلاص نفسه الذي وجدته عند المسلمين السود القادمين من

نيجيريا والسودان وغانا، بأن إيمانهم بالرب الواحد نزع البياض من أنفسهم وسلوكهم ومواقفهم، ولذلك أعتقد أن الأمركيين البيض إذا قبلوا وحدانية الله سيقبلون بالتالي وحدة الناس، ويكفون عن وزنهم في الموازين وصدهم وإيذائهم لا لشيء إلا لاختلاف لونهم، وأمام السرطان العنصري الذي ينخر جسم أمريكا يجب أن تكون قلوب مسيحييها البيض أكثر تقبلا للحل الإسلامي، لأن التجربة أثبتت فاعليته".

وكتب أيضا معلقا على تجربته عن الحج كلاما مهما عن أسلوب الدعوة للإسلام في صفحة مئتين وأربعة وستين حيث قال: "كنت أفكر وأتأمل بمنطق أمريكي وأقول، إن الناس كانت ستقبل على الإسلام بأضعاف مضاعفة لو أن صورة الحج بألوانها وروحانيتها وصلت إليهم، وأن العرب لا يفهمون نفسية غير العرب ولا يدركون أهمية العلاقات العامة، إنهم يقولون إن شاء الله ثم ينتظرون أن يأتيهم الناس مسلمين، أنا لا أقول إن الإسلام لا يسير ولكن لو كان المسلمون يستعملون مناهج العلاقات العامة المتطورة لسار بسرعة مضاعفة".

وعند عودته لأمريكا بدأ يدعو للإسلام الصحيح ولعدم التفرقة بين البشر على أساس اللون، ويدعو الأفارقة وكل الأمريكيين لمقاومة النظام الرأسمالي، كما دعا كما جاء في صفحة مئتين وثلاثة وثمانين إلى حق السود في التسلح لحماية أنفسهم إذا عجز القانون عن حمايتهم من هجمات البيض، وذكر بالنص : "إنني أؤمن بأن الخضوع للأذى وعدم محاولة الدفاع عن النفس جريمة، جريمة، وإذا كان هذا ما تعنيه الفلسفة المسيحية وتدعو له الفلسفة الغندية فإنهما في نظري فلسفتان إجراميتان فقتل بعد ثلاثة أشهر من عودته".

مالك شهباز: "لما كنت في حركة المسلمين السود لم يكونوا يعتقدون الإسلام الحقيقي، ولكن كان لديهم شيء آخر ولكن المعيار الذي يستخدمه المسلم ليقيم شخصا آخر ليس لون الإنسان، بل تقييمه طبقا لأعماله وما في ضميره ونواياه، وقد أخبرنا إليجا مُحَمَّد أن الإنسان الأبيض لا يمكنه أن يدخل مكة في السعودية العربية، لأنه أبيض وبالتالي فهو شرير بالوراثة ومن المستحيل أن تغيره،

ولكني لما ذهبت لمكة ورأيت هؤلاء الناس الشقر ذوي العيون الزرقاء والجلد الأبيض وكل هذه الأشياء فقلت جيد، وفي آسيا أو العالم العربي أو إفريقيا حيث يوجد المسلمون إذا وجد شخص يقول، إنه أبيض فإن كل ما يفعله هو أنه يستخدم صفة ليصف بها أمرا اتفاقيا عنه، أي سمة اتفاقية ولكنك إذا لقيت الرجل الأبيض هنا في أمريكا وهو يقول إنه أبيض، فإنه يعني شيئا آخر تستطيع أن تسمع لنغمة صوته حينما يقول إنه أبيض، إنه يعني أنه الرئيس، هذا هو معنى أبيض في هذه اللغة، وبرغم حقيقة أني أرى أن الإسلام هو ديانة الأخوة، فإن علي أيضا أن أواجه الواقع ولذا لما رجعت لهذا المجتمع الأمريكي فإن أقلية منه من تمارس الأخوة أقلية منه قد تبشر بها في يوم الأحد، ولكنهم لا يمارسونها في غيره من الأيام ولا في أي يوم، ولأني أستطيع أن أرى أمريكا نفسها كمجتمع بلا أخوة وأن هذا المجتمع يديره أساسا العنصريون المميزون، هذا المجتمع الذي لا تتردد حكومته في إيقاع أشد صور العقوبات وحشية والقهر ضد البشر ذوي البشرة السوداء في كل أنحاء العالم، لو استرجعنا الآن ما يجري حول سايجون وهانوي وفي الكونجو وفي غيرها فإنهم عنيفين إذا تهددت مصالحهم، ولكن مع كل هذا العنف الذي يظهرونه على المستوى الدولي لو أنا وأنت أردنا فقط بعض الحرية فإنهم يطالبوننا بأن تكون غير عنيفين، لا بد أن ندافع عن أنفسنا وإني أظن أن الرجل الأسود في هذا البلد زيادة على البشر في كل العالم هو أحقهم إذا قام ليدافع عن نفسه بغض النظر عن كم من الأعناق عليه أن يضربها وكم من الرؤوس عليه أن يشدخها، يا إخواني ويا إخواتي، إذا استطعنا أن ندرك ونتعلم اللغة التي يفهمونها فحينئذ سيستوعبون إن ما نعنيه تحديدا هو اتخاذ إجراءات نشطة للدفاع عن النفس بأي وسيلة ممكنة".

وأنا هنا أود أن أعقد مقارنة سريعة جدا بين أمريكيين من أصل إفريقي، الأول أوباما الذي جاءت به مؤسسة حاكمة بعد بوش ليخدع العالم الإسلامي وجاء لجامعة القاهرة، فأعطانا موعظة عن المقاومة السلمية ينطبق عليها قول أحمد شوقي:

برز الثعلب يوما في ثياب الواعظين

بارك أوباما: "جئت إلى هنا إلى القاهرة لأطلب بداية صفحة جديدة بين الولايات المتحدة والمسلمين في كل أنحاء العالم".

وفي نفس وقت الموعظة كانت قنابله تنهمر على المسلمين في أفغانستان وسوات، وإعاناته تتواصل لإسرائيل، جاء أوباما إلى القاهرة وإلى قاعة جامعة القاهرة، وحجزت الإدارة الأمريكية مقاعد في القاعة لبعض من ينتسبون للعمل الإسلامي، فصفقوا له ورحبوا بحديثه ثم انتهى بهم الأمر، للسجون والتعذيب وقتل الآلاف في رابعة والنهضة وغيرهما على أيدي عسكر أوباما.

والأمريكي الثاني من أصل إفريقي هو مالك الشهباز، الذي دعا للمقاومة فقتله النظام الأمريكي على أيدي جماعة أمة الإسلام.

لقد كان أوباما صنيعة المؤسسة مخادعا متاجرا بدين أبيه الذي ارتد عنه، أما مالك الشهباز فقد كان ضد المؤسسة مقاوما معتزا بدين الحق الذي اهتدى إليه، ولكن من الله سبحانه عليه فكان سببا في هداية قرابة ثلاثة ملايين من الأمريكان الإسلام، بالإضافة لغيرهم الذين تأثروا به في حياته وبعد مماته رحمه الله رحمة واسعة.

خالد ياسين : "إذن نحن نريد أن نتكلم عن مالكوم إكس، الرجل مهمته ورسالته التي ستقودنا إلى الحاج مالك شهباز، الاسم الذي اتخذه بعد أن ذهب لمكة وتاب وحج وتطهر وهدي، وبعد هذا جعله الله سبحانه وتعالى نبراس النور الذي أسلم به ثلاثة ملايين مسلم في أمريكا، هذا الذي يجب أن تعرفوه عن هذا المسلم ذي الثلاثة أشهر في الإسلام، إن لديه ثلاثة ملايين حفيد، الذي فتح الباب بسبب تضحية أو نتيجة بعض تضحيته لجلب الإسلام لأمريكا بفضل الله سبحانه وتعالى، إذن هذا هو البرهان على أن الله سبحانه وتعالى قادر أن يأتي بدينه ويأتي بهدايته لهذا العالم بأناس هم بأنفسهم لا يمكلون إلا مجرد قدر قليل جدا من المعرفة".

وكان يدعو المظلومين للمقاومة بكل وسيلة ممكنة.

مالك شهباز : "إذا عومل شخص بطريقة إجرامية، فلا أظن أن من حق مجرم ما أن يبين له الوسائل التي عليه أن يتبعها لرفع ذلك الجرم عن ظهره، إذا شرع مجرم في امتهاني، فإني سأقوم بكل ما هو ضروري لألقاء هذا الجرم عن ظهري".

ويسخر مما يسمى بالمقاومة السلمية،

مالك شهباز: "ليبقيكم وإياي تحت السيطرة، يبقوننا تحت التحكم يبقوننا سلبيين مسالمين وغير عنفين، مثلما تذهب إلى طبيب الأسنان فإذا هم بخلع سنك فإنك ستقاتله، ولكن عندما يبدأ في الخلع يحنقك في فكك بنوفكيين ليجعلك تطن أنه لا يفعل لك شيئا، ولذلك يجلس هنالك ولأنه حنقك بنو فكيين في فكك فإنك تعاني سلميا، ولكن ليس هناك أي شيء في كتابنا قي القرآن ما يعلمنا أن نعاني سلميا، ديننا يعلمنا أن نكون أذكياء، نكون مسالمين نكون مجاملين ولكن لو وضع أحد يده عليك فأرسله للمقبرة، عين بعين وسن بسن ورأس برأس ونفس بنفس هذا دين قيم، وحينئذ فإن أي شخص يقاوم نشر هذا الدين ليس إلا ذئب يبتغي أن تكون فريسته".

ويراها خيانة للمظلومين،

مالك شهباز: "أنا لا أؤمن بأي شكل من أشكال التطرف غير المبرر، ولكني أعتقد أنه إذا مارس شخص التطرف، إنسان يمارس التطرف في الدفاع عن الحرية للبشر فليس هذا بمنكر، وإذا كان هناك شخص معتدل في طلب العدالة للبشر فإني أراه آثما".

هذا باختصار شديد هو الحاج مالك الشهباز رحمه الله، الذي شاء الله سبحانه وتعالى بحكمته وقدرته وتقديره، أن ينتقل نور الإيمان وشعلته وحرارته من قلبه إلى قلب عبد الوهاب المسيري رحمه الله، وصدق الله العظيم: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 88] وهذا يبين خطورة دور القدوة في الإصلاح والعكس بالعكس، وسأشير له إن شاء الله عند الحديث عن دوافع الإلحاد.

وليس المسيري هو الملحد الوحيد الذي تأثر بمالكوم إكس.

طارق علي: "أنا أتذكر أني كنت صغيرا جدا 20 أو 21 عندما جاء مالكوم ليتكلم في أكسفورد، وكان المزاج وكانت الصورة عنه التي أبرزتها الصحف كانت، كما قال رفيق من روزا لوكسبورج الذي خطب وقال: داعية الكراهية، كان هذا ما قالته كل الصحف: لماذا تمت دعوته؟ وأثار جدلا واسعا ولكنه كان النقاش الوحيد الذي قررت البي بي سي في هذه السنة أن تصوره تلفزيونيا، وعندما وصل مالكوم للغرفة الخضراء المقارنة لاتحاد أكسفورد، وكنت أرتدي لباسي الوطني الباكستاني وقدمت له، فالتزمني، وقال: آه أخ مسلم آخر، فقلت : مالكوم أنا أخ، ولكني لست مؤمنا وأريدك أن تعرف هذا لم أكن أبدا من سن صغيرة جدا لم أؤمن أبدا بالدين.

فقال: أتعرف شيئا؟ أنا أدركت هذا أكثر فأكثر وأنا أسافر حول العالم الإسلامي، فقد قابلت أناسا كثيرين مثلك الذين إذا حييتهم وقلت هذا، قالوا نعم ولكننا لسنا مؤمنين، وقلت إن الأمر بالنسبة لنا أننا قد عشنا في هذا العالم ونشأنا فيه، ونحن نرى أننا من أصول إسلامية أو مسلمون بالميلاد وأن كوننا مسلمين ليس له أولوية كبرى، فإن هناك أشياء أخرى كثيرة تشغل فكرنا كان ذاك صحيحا وقتها، ولكن ليس صحيحا الآن بالنسبة لهم.

وقد ألقى أكثر الخطابات التي سمعها الاتحاد روعة، مؤثر قوي ثقافي مستنير متقدما بسنين على كل من شارك في هذا النقاش حتى على الموافقين له، وكان متعلما بالله كان يعلم كيف يعلم الناس، وما زلت أستطيع أن أرى بعين عقلي المشاهدين 99.9% من الشباب البيض 99.9%، كانوا مخدرين تماما لأنهم لم يكن لديهم أية فكرة عن العالم الذي يصفه، ولما قام عضو البرلمان المحافظ همفري باركلي وما زلت أذكره، وأطلق مزحة على الطريقة الأكسفوردية وقال: لماذا تقول إكس ولماذا ليس واي أو زد أليس إيه كان أفضل؟ ليس مدركا للسبب وهو كان يمزح ولكنه في الحقيقة كان لا يعلم، وجاء جواب مالكوم، شارحا العبودية في خمس دقائق للستمائة مشاهد، رائعا كلنا تعلمنا منه وكل الحاضرين وقفوا يصفقون تحية له، وهو غير معتاد بالمرة بالمناسبة في هذا التجمع.

ولما قمنا تلازمنا وتصافحنا وقلت له: يا مالكوم لقد كان حقا أمرا عظيما، أتعلم؟ وكان شرفا حقيقيا لي وأتمنى أن نلتقي ثانية قريبا. فقال: أنا لست متأكدا هل تأتي للولايات المتحدة مرارا؟ فقلت: لا. فقال: لا أدري إذا كنا سنلتقي مرة أخرى. وكان تعليقا مفاجئا حتى أني جلست ثانية وقلت: ماذا تعني؟ فقال: انظر، إنهم سيقتلونني قريبا جدا. فذهلت للوهلة يا لغرابة ما يجري، من هو هذا الرجل؟ أعني أني قد سمعته ولكن عن أي شيء في هذا العالم يتكلم، فقلت: ومن سيقتلك يا مالكوم؟ فقال: الإف بي آي أو الأمة. ثم بعد ذلك قال: الإف بي آي أو الأمة أو خليط من كليهما. فقلت: ولماذا يفعلون هذا الآن؟ فقال: هل سمعت ذلك الحديث؟ فقلت: نعم. فقال: هل تعلم؟ هذا عادي بالنسبة لك ما قد قلته. فقلت: لا لم يكن عاديا لقد كان مدهشا جدا. فقال' لا ولكنك لا تدرك ماذا يتوقع لو كنت تعيش في الولايات المتحدة، فقد بينت بوضوح شديد أني مع السود والبيض وأي تقدميين يتحدون ضد النظام.

وبعد ثلاثة أشهر التقطت الجارديان، وعلى الصفحة الأولى اغتيل مالكوم إكس، وبأمانة أخبركم لقد التقت مجموعة منا ذلك اليوم تلقائيا جدا في مكان اعتدنا على اللقاء فيه وبكينا، لم نقل شيئا لبعضنا ولكننا في البداية بكينا، وكل الكلام الذي سمعناه بعد انتصار أوباما عبر زملائه، أننا الآن في مجتمع ما بعد العنصرية ولقد سألت نفسي: ما هذا الهراء الذي يتحدثون به؟!، أنا لا أعيش حتى هناك ولكني أعلم أن ما يقولونه غير حقيقي".!

أخ غربي اعتنق الإسلام: "تعرفت على الإسلام لأول مرة عندما اعتنق صديقي في المدرسة الثانوية الإسلام، وهو أيضا جاري وهو مايكل دان، عندما اعتنق مايكل الإسلام تغير كثيرا، فقبل اعتناقه للإسلام كان يقوم بأعمال كثيرة سيئة تدحر حياته، وكان يسلك الطريق الخاطئ، ولكنه عندما أسلم كان عمره ١٥ عاما تغير وترك الأفعال السيئة وبدأ يتبنى عادات حسنة، فسألته: ما الذي غيرك وجعلك هكذا؟! فقال: لي أنه اعتنق الإسلام، وكان ذلك قبل أحداث ١١ سبتمبر، الناس في ذلك الوقت لم يعرفوا الكثير عن الإسلام حتى اليوم لا يعرفون إلا اليسير عن الإسلام، فسألته: ما هو الإسلام من هم المسلمون؟ فأخذ يشرح لي فتفاجأت بأن الإسلام قريب جدا من الديانتين المسيحية

واليهودية، فبدأ لي الإسلام منطقي جداً بأن هناك إله واحد وأنبياء ورسل، ولكن ليس هناك أحد من الأنبياء له قدسية إلاهية، لم أكن أريد اعتناق الإسلام بذلك الوقت ولكنه دين واضح ومنطقي بالنسبة لي.

بعد ذلك قرأت كتاب السيرة الذاتية لمالكوم إكس مالك الشهباز، وفي ذلك الكتاب أعجبت بالطريقة التي أظهر بها مالكوم إكس المسلمين وأردت أن أصبح مسلما بعد ذلك لأنني رأيت كيف تعامل الإسلام مع العنصرية العرقية ومشاكل أخرى موجودة في أمريكا، ولكني لم أؤمن بوجود الله ومن ثم قرأت نصا لمالكوم إكس مالك الشهباز يقول فيه: إذا مشيت لله خطوة فسيمشي الله لك خطوتين، فتركت أكل لحم الخنزير وبعض الأمور الأخرى المحرمة بالإسلام بنية أن يهديني الله، وتعلمت المزيد والمزيد عن الإسلام وتفاجأت بأنه كلما سألت أكثر ووجدت الإجابات وكلها إجابات منطقية بالنسبة لي وقرأت عن معجزات القرآن المعجزات العلمية وهي كثيرة جدا".

وأعود لرحلة الدكتور عبدالوهاب المسيري، فأقول عندما قرأت كلام المسيري عن مالكوم إكس ودور الإسلام التغييري للمجتمعات والتاريخ تساءلت: هل كان المسيري يجهل دور الإسلام التغييري في تاريخ البشرية ضد الظلم والظالمين؟ وهل غاب عن الدكتور الميسري الدور الجبار الذي أحدثه الإسلام والدعوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام في تاريخ البشرية؟ هل غاب عنه أن الإسلام هو الذي حارب الشرك ونصر التوحيد وحطم الأصنام وأقام الجهاد في سبيل الله وليس في سبيل الملك والسلطة، وهدم الإمبراطوريات وحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومنع الوسائط بين البشر وخالقهم، وقضى على الكهنوت وفاضل بين الناس فقط على أساس التقوى والعمل الصالح، وأرسى العدل والشورى وحرم الخمر والزنا والربا والقمار والبيوع الفاسدة والكذب والخيانة ومساوئ الأخلاق، وحرض على تحرير العبيد وأمر بالإحسان إليهم وللوالدين والزوجة والأبناء والفقراء والمساكين والأيتام والأسرى، وعيادة المرضى ومكارم الأخلاق، وأكد على إصلاح الباطن والظاهر، ووحد بين أتباعه من مختلف الأقوام والشعوب في أخوة ممتدة لا تعرف فاصلا أرضيا ولا

حائلا قوميا، هل غاب كل هذا والكثير غيره عن الدكتور المسيري؟ وهو الذي نشأ في مجتمع إسلامي.

ولماذا لم تشتعل جذوة الإيمان التي في قلب مالك الشهباز في قلب المسيري مع نشأته الاسلامية؟ ولماذا كان على المسيري أن ينتظر كل هذه السنين حتى يحس بقوة الإيمان؟ أين كان من قول الحق سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (24)﴾ [الأحزاب: 21-24].

أين كان من قول الحق سبحانه: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) ﴾ [آل عمران: 173-174].

هل هي مرة أخرى الحجب التي يصنعها الإنسان من نزعاته وأهوائه، فتحول بينه وبين نور البصيرة وهداية الفطرة، ألا يدل هذا على مدى غربة ما تسمى بالنخبة المثقفة عن دينها بل عن نفسها، إنها ليست غربة فقط ولكنها اغتراب أو استغراب متعمد، وضعوا به على بصيرتهم حجبا كثيفة حالت بينهم وبين الحق الذي يدركه أبسط إنسان بالبصيرة.

وإذا كان على المسيري قد أكرمه الله بالشجاعة ليعترف بما كان عليه من اغتراب أو استغراب فإن الكثيرين لا يزالون يعيشون في هذا الوهم عن عمد، بل إن المسيري نفسه تكلم عن التبعية الثقافية في كتابه رحلتي ثقافية ،ولكن طبعت الهيئة المصرية الكتاب ليست طبع باب الشروق، عام ألفين صفحة ثلاثمائة وستة وأربعين وثلاثمائة وسبعة وأربعين.

وهذا الاغتراب أو الاستغراب ألا يدل على أن الشك ليس وحده هو السبب في الإلحاد، بل إن هناك أسباب أخرى قد تكون مصاحبة بل قد تكون هي السبب الحقيقي له، وهل يمكن أن يطبق على ما يسمى بالنخبة المثقفة قانون ابن خلدون رحمه الله الذي ذكر فيه، أن المغلوب مولع بمحاكاة الغالب.

ولماذا اكتشف مالك الشهباز في الإسلام كل هذه الطاقة الفعالة الدافعة للخير والعدل ولم يكتشفها المسيري الذي قال قولته المثيرة للتساؤل في كتابه رحلتي الفكرية، صفحة مائة أربعة وثمانين:" لم أكن أعرف عن الإسلام إلا ما يعرفه أي مسلم يمارس شعائر عقيدته دون تعمق في الأبعاد الفلسفية والمعرفية".

وما هي الأبعاد الفلسفية والمعرفية التي تعمق فيها الصحابة الفاتحون رضوان الله عليهم الذين غيروا تاريخ الدنيا؟

وما هو ذلك التعمق في تلك الأبعاد لدى سيدنا ربعي ابن عامر ﵁ الذي قال لرستم: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله. قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي".

ولماذا دخل نور إيمان الصحابة قلب مالكوم إكس لما انفصل عن جماعة أمة الإسلام ثم ذهب للحج مع ضآلة معلوماته عن الإسلام، ولم يدخل قلب المسيري إلا بعد أن قابل مالكوم إكس تدريجيا على مدى سنين؟

أسئلة عديدة قد نعرف إجابة بعضها ويبقى الأمر بيد مالك الملوك مصارف القلوب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56].

ولكني أحسب أن ما وصلت إليه ما تسمى بالنخبة الثقافية في مجتمعاتنا المسلمة يدل على أننا في حاجة إلى إنقلاب إصلاحي كامل حتى تتحرر النفوس والقلوب من قيود التبعية والإنجرار وراء الأقوى والأغنى والأكثر سيطرة، وحتى تستشعر معنا قول الحق سبحانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 139].

ونمضي مع الدكتور عبد الوهاب المسيري في رحلته الطويلة، فيذكر أنه اكتشف حقيقة الحضارة الغربية المادية لما عايشها فيذكر في صفحة مائة وخمسة وثمانين من كتابه الرحلتي الفكرية، "أن الحضارة الغربية المادية رغم انجازاتها الضخمة في التكنولوجيا والعلم والسيطرة على العالم إلا أن لها اخفاقاتها الضخمة مثل الأزمة البيئية والحروب العالمية وفقدان الإتجاه وتحول الوسائل لغايات وظهور العبثية والعدم" وكان التناقض بين مثاليات النموذج المادي الماركسي عنده بين واقع الغرب يزعزع من ثقته من بذلك النموذج.

ويذكر في صفحة مئة وتسعة وثمانين من كتابه رحلتي الفكرية، "أن المجتمعات الغربية يسود فيها ضرب من غياب الحرية في إطار ديمقراطي سلس معقول، أي أنها مجتمعات شمولية نجحت في أن تجعل الجماهير تستبطن الرؤية السائدة في المجتمع وتسلك حسبها دون قمع بوليسي براني" يعني سيطرة على أفهام الناس.

"أن النسبية المعرفية والأخلاقية التي كانوا يزعمون أنها ستحرر الإنسان أدت إلى العكس، فالنسبية تنزع القداسة عن العالم، الإنسان والطبيعة وتجعل كل الأمور متساوية ومن هنا فالظلم مثل العدل والعدل مثل الظلم والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له"

وكتب في صفحة مئتين وعشرين ومئتين وواحد وعشرين من كتابه رحلتي الفكرية، أنه بدأت تهتز عنده بعض المسلمات عن الحضارة الغربية وبدأ يدرك أن النازية والصهيونية والإمبريالية هي ظواهر لصيقة بالحضارة الغربية الحديثة، فيذكر بالنص: "ببساطة شديدة أدركت أن التقدم الغربي هو ثمرة نهب العالم الثالث وأن الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه"

ومما أثر في المسيري ما ذكره في صفحة مئتين وثلاثة وعشرين ومئتين وأربع وعشرين من كتابه رحلتي الفكرية، عن تأييد الغرب غير المتحفظ لإسرائيل وأنه نابع من تمجيده للقوة المجردة من أي قيم.

وفي صفحة مئتين وتسعة وأربعين ومئتين وخمسين، يكتشف المسيري أن الإباحية الجنسية والشذوذ ليست مجرد انحرافات وإنما هي أمور كامنة في النموذج الفكري الغربي، وكانت هذه من القضايا هامة التي اكتشف من خلالها أن المادية تختزل الإنسان ولا تحرره بل تفككه.

ويذكر المسيري في صفحة مئتين ستة وستين من كتابه رحلتي الفكرية، أنه أدرك أن كثيرا مما يسمى القوانين العلمية هي في واقع الأمر مقولات فلسفية قبلية يؤمن بها العالم، وعلاقتها بعالم التجربة العلمية إما واهية وإما منعدمة.

فعلى سبيل المثال إن قال أحد العلماء: إن العالم خلق مصادفة فإنه يأكد إيمانه بتلك الحقيقة، أو إخفاقه في التواصل إلى فهم حقيقة أصل الكون، وحين يتحدث عالم آخر عن المادة ذاتية التحريك، فهو هنا يسمي شيئا لم يفهم كنهه، وفي كلتا الحالتين فإن العالمين قد انطلقا من مقولات فلسفية تسبق على عملية التجريب ذاتها.

وفي الصفحات من مئتين وثلاثة وثمانين إلى مئة وسبعة وثمانين، بدأ المسيري يسأل نفسه بعد حرب أكتوبر واعتزازه بأداء الجندي العربي عن حركة التاريخ، هل لها غاية أم ليس لها؟ فإذا كان لها غاية فما مصدرها وإذا فالحديث عن حتمية التاريخ وحتمية انتصار الطبقة العاملة وحتمية تحرير فلسطين، هو نفاق عقائدي يخفي حقيقة تعلق قائليه بقوة عليا تسيل التاريخ أو كما اسماه متفزقياء قذرة في مقابل الاعتقاد بوجود قوة عليا تسير الكون وهو ما اسماه بالمتفزقياء النظيفة.

وإذا لم يكن للتاريخ غاية، فليس ثمة إلا العبث وتساوي كل شيء الخير والشر الحق والباطل الظلم والعدل، ثم بدأت الأسئلة تتكاثر علي،ه لماذا جبلنا على محبة الخير وبغض الشر. ولماذا هناك شر ؟ ولماذا يختار الملحد المادي فعل الخير؟

ثم بدأ يسترجع ويتأمل فيما درسه عن الإبادة النازية وعن الصهيونية، واكتشف أن الفكر داخل إطار النموذج المادي والنسبية المطلقة يبرر كل شيء، فالإنسان هو مرجعية نفسه وأي آراء يتبناها أو أفعال يرتكبها مهما بلغ نبلها أو خستها هي صحيحة متساوية.

وفي صفحة مئتين وثلاثة وتسعين من كتابه رحلتي الفكرية، يذكر: أن الأسئلة المحمومة استمرت تحيط به، ويتساءل عن الخنزير الذي يعيش في عالم الحواس والمادة لماذا لا تهاجمه أي شكوك أو تساؤلات، وتساءل عن معنى حرية الإرادة ولماذا نعتبرها فضيلة، وإذا كانت الأمور مادية فما مصدر حرية الإرادة؟

وفي الصفحات مئتين وأربعة وتسعين إلى مئتين وثمانية وتسعين من كتابه الرحلة الفكرية، يذكر أنه كتبت كتابه الفردوس الأرضي من عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين إلى ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين، وأورد فيه اقتباسات عديدة من القرآن الكريم، وعاقد فيه فصلا قارن فيه بين المفكر الصهيوني نورمن بود هورس الذي كان يرى أن النجاح المادي هو غايته وبين مالكوم إكس الذي حرره الإسلام من واقعه المادي.

ومرة أخرى يعود مالكوم إكس لحياة المسيري ليعطيه دفعة معنوية في طريق الإيمان، ويختم المسيري كتابه وهو يصف عودته لبيته في مصر وسهره في الليل، ثم سمعه مرة أخرى لأذان الفجر، وكانت هذه المرحلة كما كتب المسيري ،هي مرحلة الوقوف على عتبة الإيمان إلى أن من الله عليه بإقامة الصلاة في بداية الثمانينيات.

وفي صفحة مئتين وتسعة وتسعين من كتابه الرحلتي الفكرية ينتهي إلى: أن الإنسان متجاوز لقوانين الطبيعة المادية وأنه لا يمكن تصور الإنسان المستقل عن الطبيعة إلا بوجود الخالق عز وجل المفارق للطبيعة المادة. أي اتفق مع قول أهل السنة أن الله بائن من خلقه ويضيف: أن إعلان نتشا موت الإله هو إعلان موت الإنسان، لأنه يصير شيئا من الأشياء في عالم مادي مصمت، ويستدل بقول الحق سبحانه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: 19].

وفي صفحة أربعمائة وثمانين من كتابه الرحلتي الفكرية، يتكلم عن موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية فيقول: إن الحداثة الغربية أعلنت موت الإنسان بعد أن أعلنت موت الإله.

أليس شبيها بهذا قول مُحَمَّد إقبال في شعره المترجم:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ذ ... ولا دنيا لمن لم يحيي دينا
ومن رضي الحياة بغير دين ... فقد رضي الفناء له قرينا

وقبل أن أختم كلامي عن رحلة الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله، فإني أود أن أشير إلى أحد أهم أخطائه، وإن كان ذلك خارجا عن موضوع هذه الحلقات الموجزة، ألا وهو دعوته للعلمانية الجزئية، وذلك لأن هناك فئات تتخذ المسيري مرجعا وتتابعه في أفكاره ومنها هذه، وفي الحقيقة أن هذا تناقض من المسيري، لأنه أقر في موسوعة اليهود واليهودية، المجلد الأول الجزء الرابع الباب الأول تحت عنوان إشكالية العلمانيتين علمانية جزئية وعلمانية شاملة،: بأن العلمانية الجزئية تنتهي إلى علمانية شاملة، وأن فصل الدين عن الدولة ينتهي بهيمنة الدولة عن الدين، وأن العلمانية الجزئية والشاملة ما هما إلا حلقتان في متتالية تاريخية واحدة.

ثم هو يقرر في النص الذي سأختم به إن شاء الله بأننا كمسلمين ما جئنا للدنيا لكي نبيع ونشتري، بل لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، فكيف يتحقق ذلك إلا بأمة تقودها الشريعة، وكيف يتحقق ذلك إلا بما تحقق لسلفها، وكيف يتحقق ذلك عبر تنحية الشريعة عن الحكم واستبدال العلمانية بها، أيا كانت جزئية أو غير جزئية، وإذا كان المسيري قد يوجد له بعض العذر لأنه ربما لم يطلع على النصوص الشرعية الموجبة للتحاكم للشريعة وجعل ذلك جزءا من الإيمان لا يتحقق إلا به، فكيف غابت عنه طبيعة النظام الغربي؟ وأنه لن يسمح بأية تجربة ديمقراطية حقيقية في بلادنا، لأنه يعتبر الديمقراطية حكرا عليه.

كيف غاب عنه ذلك وهو الخبير بالغرب بفلسفته وتطوره وتاريخه ومزاجه؟وقد رأينا النتيجة الفاجعة الناتجة عن ناتج عن سلوك هذا الطريق تتكرر مرات ثم مرات، ويندفع وراءها المضيعون لأمتهم مرات ثم مرات.

إني أذكر ذلك من باب أمانة البلاغ، ولكن يجب أن أعترف أن المسيري قد خطى خطوات شجاعة عظيمة في طريق الحق، أسأل الله أن يتقبلها منه وأن يجعلها في ميزان حسناته وأن يتجاوز عن زلاته.

وأنهي كلامي عنه بمسك الختام وهو ما ذكره الدكتور عبدالوهاب المسيري رحمه الله، في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد السابع الجزء الخامس الباب الثالث تحت عنوان ما بعد الصهيونية صهيونية عصر ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد حيث كتب: "ومن هذا المنظور فإن العدو الأول للنظام العالمي ليس القومية العربية الآخذة في التراجع وخصوصا بعد سقوط الدول الإشتراكية وبعد حرب الخليج، وإنما هو كل من يقف ضد الإستهلاكية العالمية، أي الإسلام، أي الإسلام كأيديولوجيا إنسانية عالمية وكمنظومة قيمية فمن المنظور الإسلامي نحن لم نأتي إلى هذا العالم كي نبيع أو نشتري، وإنما لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وقيم الأمانة والكرامة لها ثقل في عقل هذا الإنسان المسلم، فالإسلام رؤية تجعل من العسير على الإنسان أن يرد نفسه إلى النشاطين الأساسيين، أي النشاط الاقتصادي والنشاط الجنسي، ثم يردهما كليهما إلى الطبيعة المادة، فالإنسان المسلم ليس الإنسان الطبيعي ذي، هكذا يقول، البعد الواحد، وإنما هو الإنسان المركب الذي استخلفه الله في الطبيعة كي يعمرها ويسخرها لنفسه وللأجيال القادمة بإذنه تعالى، في مواجهة هذه الأيديولوجية الإيمانية، تستعيد إسرائيل دورها التاريخي الذي كادت تفقده، تستعيد إسرائيل دورها في الذي كادت تفقده وبدلا من أن تكون مجرد قاعدة للاستعمار الغربي الرأسمالي فإنها

تصبح ممثلة للحضارة الغربية الحديثة العلمانية بشقيها الرأسمالي الحالي والاشتراكي السابق".

يعني أن إسرائيل فقط ليست ممثلة للغرب الرأسمالي، لكنها الآن في مواجهة الإسلام، تجعل نفسها ممثلة للغرب بكله سواء اشتراكي أو رأسمالي، ثم يواصل: "حائطا ضخما يمثل الغرب في الشرق ويقف ضد الهمجية الشرقية على حد قول هرتزل، فهناك الآن الجمهوريات السوفيتية الإسلامية السابقة التي أصبحت لها دينامية مستقلة نوعا وتتهددها ،على قول الأعداء يعني، الأصولية الإسلامية وهناك كذلك بعض النظم العربية التي ترى أن عدوها الأساسي هو هذه الأصولية الإسلامية".

وأكتفي بهذا القدر وأواصل الحديث في الحلقة القادمة إن شاء الله عن المثال الثالث من المهتدين وهو الأستاذ عادل حسين رحمه الله، وأترككم إن شاء الله إلى الحلقة القادمة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وآله وصحبه. وسلم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

صفقة القرن أم حملات القرون (الحلقة الخامسة)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أيها الإخوة المسلمون في كل مكان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

كنت في الحلقات الأربع السابقة قد ذكرت ردًا موجزًا مبسطًا على الملحدين النفاة، وأتبعته بمثالين لملحدين وفقهما الله للعودة للإيمان بفضله ورحمته، وهما الدكتوران مصطفى محمود وعبد الوهاب المسيري، وفي هذه الحلقة أود أن أذكر باختصار المثال الثالث من المهتدين، وهو الأستاذ عادل حسين رحمه الله.

ومعلوماتي عن التحولات الفكرية للأستاذ عادل حسين قليلة، فلم أقرأ إلا قليلًا عن ذلك، ولكن لي ميزة أخرى تفيدني في الاطلاع على شخصيته، وهي أني قد قابلته شخصيًا بحضور الشيخ أبي الخير رحمه الله، وكان لقاءً مهمًا جدًا، وسأذكر بعضًا مما جاء فيه إن شاء الله.

وكنت قد قرأت مقالًا للدكتور مُحَمَّد عباس في رثاء الأستاذ عادل حسين، وفي هذا المقال ذكر الدكتور مُحَمَّد عباس أنه دعا الأستاذ عادل حسين لبيته، وسأنقل رواية الدكتور مُحَمَّد عباس عن عادل حسين بنصها، ثم أعلق بعد ذلك. كتب الدكتور مُحَمَّد عباس:

"كان ذلك في منزلي..

وكنت قد سألته عن مسألتين تستبد بي الحيرة كلما فكرت فيهما: ألا وهما كيف انحرفت النخبة هذا الانحراف الجماعي .. ثم هو نفسه .. كيف أنه بعقله الموسوعي ذلك.. وبنقائه وطهارته قد انخدع بالفكر الشيوعي –ذات يوم– وهو فكر مسطح –حتى على مستوى الفلسفة– لا يقتنع به إلا جاهل أو عميل.. والجهل والعمالة ينطبقان على معظم النخبة، لكنهما لا ينطبقان أبدًا على عادل حسين فلماذا انخدع مثلهم؟..

كان يدافع عن أجيال وراء أجيال.

راح عادل حسين يقدم عرضًا تاريخيًا وفكريًا هائلًا على مساحة القرنين الماضيين.. كيف بدأت الهزيمة.. وكيف وصلنا إلى هذا الحال.. وكيف أن معظم هذه النخب معذور في الموقف الذي اتخذه.. كان الهجوم عاتيًا وشرسًا وشاملًا.. وحتى من قاوموه لم يكونوا يدركون كل مراميه.. في الحرب قد

نخسر معركةً فنبادر للاستعداد لمعركة أخرى.. لكن خطورة ما حدث في القرنين الماضيين أن العدو لم يكتف بغزو الأرض.. بل لجأ إلى غزو العقول والقلوب وحتى الأرواح.. ولجأ في غزوه ذلك إلى سبل لا تخطر على بال.. كانت الدولة الإسلامية تتهاوى.. وكان المعروض من تطبيقاتها يثير أقصى درجات الحنق والغضب.. وكان عجزها عن المواجهة يثير الازدراء.. في البداية كان الغضب والازدراء مرتبطان [كذا] بأسبابهما.. ألا وهو عجز الدولة عن المواجهة وعن تصويب مسارها.. كانا بهذا الشكل حبًا مقلوبًا يمكن أن يعود كاملًا لو أصلحت الدولة أحوالها وانتصرت .. وعن طريق الغزو الفكري والزخم الإعلامى استطاع الغرب أن يفصل السبب عن النتيجة.. فأصبح الازدراء مطلقًا دون العودة إلى أسبابه.. وتوسل الغرب إلى ذلك بوسائل عديدة.. منها سياسة التجهيل المنظمة.. ومنها استقطاب عناصر من المجتمع لتمثل دور القائد والرائد.. ومنها ربط كل سمات الدولة الإسلامية العثمانية بالتخلف.. وعلى رأس هذه السمات الإسلام.. ومنها التوسع في إصدار مئات الصحف.. ليتشتت المجرى الأساسي لفكر الأمة.. تمامًا كما يتشتت مجرى النهر إلى مئات الجداول والبرك حيث كل الماء آسن..!!.. في عهد كرومر –على سبيل المثال– ارتفع عدد الصحف الصادرة في القاهرة إلى 300 صحيفة!!.. كنت تجد كل شيء.. الفكر وضده.. المبدأ وعكسه.. من يحول الشياطين إلى ملائكة والملائكة إلى شياطين.. من يجعل العهر طهرًا والطهر تخلفًا ورجعيةً والوطنية حماقة والعمالة تحضرًا ورقيًا.. وكانت الكارثة التي نجمت عن ذلك هو تخلخل الثوابت.. تراجع المطلق ليكون نسبيًا بين نسبيات أخرى.. أصبح القرآن الكريم نفسه كتابًا من الكتب يمكن نقده.. و أصبح الدين حزبًا سياسيًا يمكن الهجوم عليه .. تزلزلت الثوابت.. و لم يفعل الغرب ذلك كله دفعةً واحدةً.. بل بأناة وصبر شديدين.. استولى على الإعلام والتعليم .. اصطاد أعضاء البعثات في الخارج.. نعم.. كانت الرشوة أحيانًا سافرةً والخيانة ظاهرةً.. لكن.. في معظم الأحوال كانت الرشوة تجرى بصورة لا يدركها حتى المرتشي نفسه.. وتدخلت آلية صناعة النجوم أو فرض التعتيم.. كانت كل الأجهزة الاستخبارية والثقافية والتبشيرية والأمنية تتضافر ضدنا.. وكنا محاصرين لانرى.. وتكاثرت علينا الهزائم والنكسات والخطوب .. ولم يخل الجو من أبطال صمدوا للدفاع عن الإسلام ولكن جرى التعتيم عليهم.. لا توجد وسائل نشر لنشر ما يقولون.. فإذا جرؤت مطبعة على ذلك حوربت وحوصرت.. ثم كان أن تكفل الآخرون بالهجوم عليهم وهم محاصرون.. نجح الغرب في إفقاد الأمة ثوابتها".

ويضيف الدكتور مُحَمَّد عباس في روايته عن عادل حسين:

"انظر عند جلائهم من معظم الدول الإسلامية كيف كونوا نخبةً كاملةً تنتمي إليهم.. نخبة تضم الحكام والمفكرين وقادة الجيوش وضباط الشرطة والصحافيين.. نخبة كاملة تنتمى بفكرها وعقيدتها إلى الغرب، وترتبط مصالحها بمصالحه، وقد تدرك هذه النخب أو لا تدرك أنها إذ تدافع عن نفسها تدافع عن الغرب ضد أمتها في نفس الوقت.

واستطرد عادل حسين:

في بداية الأربعينيات كان الوضع هكذا.. أمة إسلامية مهزومة.. إسلام مشوه محاصر لا يسمح لنوره بالنفاذ إلينا، ووعى قاصر، وجهل قد خطط له.. التعليم شوه الدولة الإسلامية وقدم معلومات قاصرةً مبتورةً لا تغني ولا تسمن من جوع في أي مواجهة.. والإعلام واصل مهمة التعليم بالتشويه ونشر الأكاذيب حول الإسلام والمسلمين.. والعناصر التي كان يمكن أن تواجه ذلك مقموعة ممنوعة وقد حيل بينها وبين الناس.. والمؤسسات التي كانت دومًا حصنًا للدفاع عن الإسلام –كالأزهر– حوصرت واخترقت وشوهت، بل وأسبغ عليها فوق الحصار والاختراق والتشويه صفة التخلف.. و أخذت أجهزة الإعلام تتعامل مع هذا التخلف كحقيقة مسلمة، لا ينكرها إلا متخلف يستحق ذات الازدراء .. وبعد هذا كله لا يوجد نموذج واحد لدولة إسلامية تتمحور حولها.. وكان الغضب موجودًا، وقد انفصل عن مسبباته.. ونظرنا حولنا في الدنيا فلم نجد من يستطيع مواجهة الغرب سوى الشيوعية .. ومن هنا كانت البداية.. كيف لا نستطيع الغفران لمن أخطأ وكل المعلومات التي كانت عنده خطأ..

واستمر عادل حسين يتكلم.. كان يدافع عن أجيال وراء أجيال.. كان يبرئ الأمة ويلتمس الأعذار للنخب.. وأحسست في لحظة وكأنما هو يعد دفاعه هذا، لكي يبديه أمام الله يوم القيامة متوسلًا إليه حتى تشمل رحمته كل الخطاة من الأمة".

***

أما تعليقي فهو: أنه لا يمكن عذر كل النخبة الثقافية والسياسية، ففيهم خونة، وفيهم فاسدون، وفيهم مجرمون، وفيهم عملاء للإنجليز والملك، وفيهم خدام للملك يوفرون له وسائل الفساد، وفيهم مخدوعون، وفيهم شرفاء، وفيهم أهل عقيدة وخلق.

كان هناك أعلام اقتدت بهم طوائف، كان هناك حسن البنا وعبد القادر عودة، وكان هناك أحمد شاكر ومحمود شاكر، وكان هناك سيد قطب ومُحَّد قطب، وغيرهم رحمهم الله.

ربما لم يقتنع عادل حسين بحسن البنا لمهادنته للقصر الفاسد، ومبايعته للملك الخليع العلماني على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي البيعة التي لم يطلبها الملك من أحد، ولم يقبلها من الشيخ حسن البنا –رحمه الله– والإخوان، بل بعد ذلك قتل الملك حسن البنا رحمه الله.

وربما لم يقتنع بالشيخ أحمد شاكر والعلامة محمود شاكر رحمهما الله، لأنهما كانا سلفيين محققين للكتب، وكان العلامة محمود شاكر أديبًا، فلم يكن لهما توجه سياسي.

بل كان التوجه العام للحركة السلفية هو الدعوة لطاعة الملك وتأييده.

بل ولم يقتد بأخيه الأكبر الأستاذ أحمد حسين، وكان زعيمًا سياسيًا يجمع بين الوطنية والإسلام.

ولكنه خالف كل هؤلاء وصار ماركسيًا، لماذا لا أعلم، ولا يعلم الغيب إلا من يعلم ما في القلوب.

– إذن الذي أراد عادل حسين أن يقوله لمحمد عباس، أنه اعتنق الماركسية، كوسيلة لمقاومة الإنجليز وتحرير الأمة، بعد أن رأى أن أفق التغيير قد انسد، وظن أن الشيوعية قد تستطيع مقاومة الغرب، ثم اكتشف أنه قد خدع.

وعن ذلك الخداع يحكي الدكتور مُحَمَّد عباس، أنه تناقش مع عادل حسين حول رفعت السعيد، وكان رأي الدكتور مُحَمَّد عباس فيه أنه عميل للاتحاد السوفيتي ثبتت عمالته بوثائق نشرتها صحيفة الأهرام، التي جاء فيما نشرت؛ أن رفعت السعيد كان يتلقى دخلًا ثابتًا من الاتحاد السوفيتي.

ولكن عادل حسين كان يظن فيه الخير، ويرجو أن يعود للصواب، لأنه كان يعتقد أن انحراف رفعت السعيد انحراف فكري وليس انحرافًا أخلاقيًا، وكان الدكتور مُحَمَّد عباس يراه انحرافًا أخلاقيًا وعمالةً وموقفًا مبدئيًا ضد الدين.

ثم حدثت مناظرة في قناة الجزيرة بين عادل حسين ورفعت السعيد، وحسب رواية مُحَمَّد عباس فقد كال فيها رفعت السعيد الأكاذيب ضد عادل حسين.

وبعد المناظرة اتصل مُحَمَّد عباس بعادل حسين، وبعد حديث طويل، رد عليه عادل حسين بجملة واحدة: لقد خدعت.

ويعلق الدكتور مُحَمَّد عباس على تلك الإجابة بقوله:

"لم يضف كلمةً واحدةً.. ولم نتحدث في هذا الموضوع بعد ذلك أبدًا.. لكنني فهمت المعنى العميق المترامي للكلمة.. بالتأكيد لم يكن يقصد الخديعة أثناء المناظرة.. بل كان الأمر أبعد بكثير من ذلك.. كان أشبه بصدمة عاطفية.. ولعله لم يكن يتصور أن يكون رفعت السعيد بهذا السوء".

ثم يضيف: "بل إنني أعتقد.. أن مفهوم كلمة: "لقد خدعت". يتجاوز حتى رفعت السعيد.. يتجاوزه إلى الحركة الشيوعية كلها.. أو على الأقل جلها.. ولعله اكتشف أن المفهوم الذي تعلق بذهنه عن الحركة الشيوعية لايمثل أكثر من 10% منها.. يمثل الاستثناء لا القاعدة أما النسبة الباقية فليسوا إلا أفاقين وخونةً ومرتزقةً، لم تكن قضيتهم العدالة الاجتماعية، ولا البحث عن الحقيقة قط.. كانوا مجرد أعداء مأجورين على الإسلام.. كانوا عملاء للسوفيت، حتى انتهى السوفيت، فنقلوا العمالة إلى أمريكا وإسرائيل".

وهنا أعلق: أليس ما يقوله الدكتور مُحَمَّد عباس هنا قريب جدًا مما كتبه الدكتور عبد الوهاب المسيري عن رفاقه الشيوعيين.

وعن هذا التوجه نحو العمالة لأمريكا وإسرائيل كتب الدكتور عبد الوهاب المسيري كلامًا نفيسًا جدًا في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد السابع- الجزء الخامس- الباب الثالث- ما بعد الصهيونية (صهيونية عصر ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد): أستأذن المشاهد الكريم أن أنقله بنصه وإن طال قليلًا، كتب الدكتور المسيري رحمه الله:

"ولابد من إعادة صياغة النخبة الثقافية والسياسية وإعادة تعليمها، وستأخذ هذه العملية شكل الترغيب والترهيب.

أما الترغيب، فهو يأخذ شكل دعم ورشاوى ومراكز بحوث وصفقات وبرامج ثقافية تزيد معدلات الأمركة والعلمنة فى المجتمع والتلويح للنخب السياسية والثقافية بأنها ستشارك بشكل مباشر في هذا التعاون الدولي وستجني ثمراته بشكل شخصي.

أما الترهيب فهو تخويف الجميع من خطر الإرهاب الإسلامي. وقد نجح النظام العالمي الجديد فى هذا المجال، فكثير من المثقفين القوميين والاشتراكيين العلمانيين، ممن وجدوا أنفسهم بلا أرضية ولا قضية، بعد حرب الخليج وبعد تراجع المنظومة القومية وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وتساقط المنظومة الاشتراكية، يبحثون عن مبرر وجيه وموضوعي للتوجه للسفارة الأمريكية والسير في ركاب المنظمات الدولية (التي تدفع رواتب هي أقرب إلى الرشاوى منها إلى الأجور).

وقد وجدوا مثل هذا المبرر أخيرًا في الادعاء بالخوف على الداخل الديموقراطي من الداخل الإرهابي، ومن ثم فليستعينوا بالخارج الدولي، هذا الذي ساند كل الدول الإرهابية عبر تاريخه، ولا يزال يساند

طواغيت الأرض، الذين ينهبون شعوبهم أثناء عمليات النهب، ثم يحميهم بعدها، فهذا الخارج قد أصبح -فجأةً- نصير الديموقراطية والمدافع عن العدالة.

وبدأت تظهر بينهم آلهة محلية مثل "حورس" جزء من الماضي المتحفي (نسبةً إلى متحف)، لتحل محل الماضي العربي الإسلامي الحي، وحتى تتصارع الآلهة المحلية الوثنية (هذا، إذا تم بعث آشور، واللات والعزى)، كما كان الحال فى الشرق الأدنى القديم قبل الفتح الإسلامي، وهذه هى تمامًا الرؤية الصهيونية للمنطقة في عصر ما بعد الحداثة.

هذا هو الإطار المعرفي العام لحركة النظام العالمي الجديد وصهيونية عصر ما بعد الحداثة في الشرق العربي والإسلامي: إنسان اقتصادي مادي لا ذاكرة له- ينسى التاريخ والهوية- مرن- قادر على التفاهم مع الجميع حسبما تمليه عليه الحسابات الاقتصادية الرشيدة. وهو شرق عربي مرن، إجرائي، قادر على الدخول في علاقة طبيعية مع إسرائيل وعلاقة حميمة مع الغرب".

***

وكان هناك عامل آخر تسبب في تأخر هداية عادل حسين، فقد استمعت مرةً لحديث لأحد أساتذة السياسة المشهورين، ذكر فيه أنه سأل عادل حسين: كيف للعقلية التي ألفت كتابًا قيمًا مثل كتاب (الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية) أن لا تهتدي للإسلام؟ فأجابه عادل حسين بما معناه: لقد كان الإسلاميون يتجنبونني.

إذن هنا تأتي أهمية الدعوة ومواصلتها ومتابعتها، والتواصل مع من يتلمس فيهم الخير.

***

كان هذا عما قرأته وسمعته عن تجربة عادل حسين في الإلحاد ثم نعمة الله عليه بالعودة للإيمان.

أما عن لقائي معه، فقد علمت من بعض المعارف أن الأستاذ عادل حسين يسعى للقائي، ويسأل عن إمكانية ذلك، فوافقت، والتقينا أنا وهو والشيخ أبو الخير رحمه الله.

وكان لقاءً مفيدًا جدًا، وكان عادل حسين يتكلم باعتباره أحد المجاهدين.

ونصحنا الأستاذ عادل حسين -رحمه الله- بثلاث نصائح ضرورية للنصر:

الأولى: التأكيد على ضرورة الوحدة بين المجاهدين، وأكد بالذات على ضرورة الوحدة بين جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية، وذكرت له أننا نسعى في ذلك، ولكن تبين -بعد ذلك- أننا كنا في واد، وقيادة الجماعة الإسلامية في السجن كانت في أودية أخرى.

واالنصيحة الثانية: ضرورة التركيز على ضرب المصالح اليهودية والأمريكية، فقلت له: إننا مهتمون ومقتنعون بذلك، وبياناتنا الأخيرة تركز على ذلك، فتبسم وقال لي ما معناه: إن الكلام هو شغلي، أما أنتم فعليكم بالعمل.

والثالثة: ضرورة الاستعداد للحظة انهيار النظام القائم، فهو نظام تعفن إلى درجة تحتم انهياره، ولكن التحولات التاريخية قد تستغرق سنوات عديدة، والرابح هو من ينتهز فرصة التغيير، ويكون مستعدًا لاستثمارها. أسأل الله أن يجزيه خير الجزاء.

والحمد لله فقد نفذنا: الوحدة مع القاعدة، وضرب الأمريكان والإسرائيليين، وأما نظام حسني مبارك فقد انهار، ولكن فشلت الثورة ضده، لأسباب ذكرتها من قبل في أكثر من كلمة.

ثم علمت بعد ذلك أنه قبض عليه عند عودته من إحدى أسفاره بتهمة اللقاء مع قادة من الجماعة الإسلامية في الخارج، ومكث مدةً في السجن بسبب ذلك، وتهددت حياته بالخطر بسبب مرضه بقصور في القلب.

المقصد الذي أريد توضيحه هو أن عادل حسين -رحمه الله- كان يعد نفسه من المجاهدين، وغامر وتخطى الخطوط الحمراء، التي يسمح بها النظام المصري، بل والإدارة الأمريكية لأية معارضة رسمية، ولكنه لم يبال، بل كان حريصًا على اللقاء، وتوجيه النصائح.

***

وأنا هنا أود أن أتوقف وقفتين موجزتين:

الأولى: حول شخص عادل حسين، وكيف أنه كان من أسباب تأخر هدايته نفور الإسلاميين منه، وأنه لما من الله عليه سبحانه بالهداية تحول لطاقة فعالة منتجة، وكان يعد نفسه من المجاهدين.

إذن ما نستفيده من هذا؛ هو أهمية استمرار الدعوة، وألا نيأس من هداية الناس، ففي نفوس كثير من الضالين -إن لم يكن أكثرهم- حيرة وقلق بل وأحيانًا عذاب، وصفه الدكتور المسيري -كما نقلت عنه- بالتطاحن، يقول ابن القيم رحمه الله:

"فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده".

وهم في حاجة لمن يمد لهم يد الدعم والمساندة، ورب كلمة صادقة مخلصة خير من ألف كتاب، ولنتذكر حديث النبي ﷺ: "فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم"[5].

وذكر الواقدي في المغازي ونقله عنه البيهقي في دلائل النبوة وابن كثير في البداية والنهاية من خبر إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه: أن أخاه الوليد بن الوليد كتب إليه رسالةً جاء فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟! وقد سألني رسول الله -ﷺ- عنك، فقال: "أين خالد؟". فقلت يأتي الله به. فقال: "ما مثله جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين كان خيرًا له، ولقدمناه على غيره".

ولما قدم على رسول الله ﷺ، قال له:

"الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلًا رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير".

فهذه دروس عظيمة من سيرة رسول الله ﷺ.

والوقفة الثانية: حول نصيحته الأخيرة بضرورة الاستعداد لانهيار النظام، فإن نظام عبد الفتاح السيسي معرض للانهيار أيضًا، وهو نظام عفن عفونةً شديدةً، وقد ينهار في أية لحظة، قد ينهار الآن، أو بعد سنة، أو بعد عشر سنين، أو أكثر أو أقل، لا يعلم إلا الله سبحانه، والتغيرات التاريخية لا تتم عادةً في لحظة.

فعلى القوى المخلصة العاملة على نصرة الإسلام أن تستعد لذلك، بأن تجتمع حول عقيدة صحيحة واضحة، وأن لا تساوم على حاكمية الشريعة، فقد رأينا خسارة الدين والدنيا، التي جلبتها المساومات، وعلى هذه القوى المخلصة أن تكون واضحةً حادةً فاصلةً في مقاومة النظام الفاسد المتصيهن المحارب للإسلام.

مقاومة تجاهده بالسلاح والبيان والفكر والدعوة والتربية واكتساب الأنصار وتقليل الأعداء، ملتزمةً بأحكام الشريعة ومحققةً لمقاصدها.

---

[5] متفق عليه.

ولا تكف حتى تستأصل أركانه استئصالًا، بجيشه وأمنه وقضائه وإعلامه وتعليمه واقتصاده وسائر أركانه، وتنشئ على أنقاضه دولة الشريعة والعدل والشورى.

وعليها أن تتخلص من أوهام القيادات الضعيفة التي ساقتها للهزيمة.

وأن تعلم أن طريق الدعوة والجهاد هو طريق النصر، أما متاهات تحكيم هوى الأغلبية والتوافق مع العلمانية، والاجتماع على القومية والوطنية والعصبية والتضحية بأخوة الإسلام حتى يرضى العلمانيون والغرب وأمريكا والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، فهو طريق الخسارة، الذي يثبت فشله كل يوم.

وحين تتأكد سلطة الإسلام، فيومئذ يقيم ممثلو الأمة نظامهم السياسي النظيف النزيه المبني على الشورى والعدل وصيانة الحقوق ونصرة الضعفاء ومحاربة الفساد.

أما أن نقيم نظامًا سياسيًا فاسدًا مبنيًا على تحكيم هوى الأغلبية والوطنية والعصبية والتنازل عن حاكمية الشريعة حرصًا على -ما زعمه المتنازلون- التوافق الوطني، ونؤسسه على التفاهم مع الجيش المتأمرك العلماني، ومع كل من هب ودب من العلمانيين وأبواق خدم القواعد الأمريكية في الخليج والشيوعيين والملحدين والأقزام أعداء الإسلام والكنيسة المؤسسة على الفساد ومحاربة الإسلام.

ثم نخدع الجماهير -بعد كل هذا الخلط- بأننا في الطريق لإقامة الدولة الإسلامية.

هذا هو طريق الفشل طريق الضياع طريق الخسارة طريق الهزيمة.

ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

كان هذا باختصار الجزء الأول من حديثي حول الرد على الملحدين النفاة، وأكتفي فيه بهذا القدر، وأواصل الحديث في الحلقة القادمة -إن شاء الله- لأنتقل فيها للجزء الثاني من حديثي، وهو عن دوافع الإلحاد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

صفقة القرن أم حملات القرون (الحلقة السادسة)

أيها الإخوة المسلمون في كل مكان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

كنت في الحلقات الخمس السابقة قد تعرضت للرد على الملحدين النفاة، وذكرت أمثلةً من المهتدين الذين من الله عليهم بالهداية بعد الإلحاد، وأود هنا أن أنتقل للجزء الثاني من حديثي حول دوافع الإلحاد.

ودوافع الإلحاد عديدة، وقد يكون منها الشك.

وهذا الشك قد يثيره المدرس صاحب الغرض، وفي غياب المرشد الواعي قد يتبلبل التلاميذ، فأذكر أن أحد المدرسين في المدرسة الثانوية، كان يلقي شبهات من أمثال: المسلم قد يتشكك بسبب تقبيل الحجر الأسود، والمسيحي قد يتشكك بسبب الأكليروس.

وكان معي في الكلية مجموعة من الشيوعيين، وكانوا لا يخفون علي، وأذكر أن أحدهم حاول أن يجرب معي، فقال ما معناه: هل إسباغ الوضوء هو الدين، مثل من يقول: ويل للأعقاب من النار.

والشك دواءه العلم وسؤال أهل الذكر، مع إخلاص القصد في طلب الحق.

***

إلا أن دوافع الإلحاد لا تنحصر في الشك فقط، بل بالإضافة للشك، هناك ما هو أهم منه، فمن ذلك: الكبر وعبادة النفس والزهو، كما نقلت عن الدكتور مصطفى محمود، قوله:

"وتغيب عني في تلك الأيام الحقيقة الأولى وراء ذلك الجدل. إن زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج -التي انفردت بها- كان هو الحافز دائمًا، وكان هو المشجع، وكان هو الدافع، وليس البحث عن الحقيقة. لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت في عبادة نفسي".

***

- وهناك الانبهار بثقافة الأجنبي مقرونًا بضعف العلم الشرعي.

فالدكتور عبد الوهاب المسيري ذكر مثلًا في ص: 132 من كتابه (رحلتي الفكرية) أنه في مرحلة الشك كان ثائرًا ضد الظلم الاجتماعي، ولذلك كان حتميًا -في نظره- أن يكون ماركسيًا.

ثم ذكر -كما نقلت سابقًا- في ص: 184 و185 في كتابه (رحلتي الفكرية)

أنه بدأ يدرك في أمريكا دور الدين في الواقع المادي، وليس فقط باعتباره غيبًا مغلقًا، على حد تعبيره.
ثم بدأ يتعرف على ما أسماه "التجربة الدينية الإسلامية" ليفهم منطقها الداخلي.
وذكر أنه قابل الحاج مالك الشهباز رحمه الله، وكانت لتلك المقابلة أعمقَ الأثر في نفسه.
وأنه –أي المسيري– لم يكن يعرف الكثير عن الإسلام، إلا ما وصفه بأنه: "ما يعرفه أي مسلم يمارس شعائر عقيدته دون تعمق في الأبعاد الفلسفية والمعرفية".
وأنه بعد قراءة سيرة مالكوم إكس أدرك كما –نقلت عنه– بالنص: "مدى عمق الإسلام فيه كمثالية مجاوزة لعالم المادة، كما أدركت دور الإسلام التثويري التنويري في حياته".
وقد تساءلت –من قبل– كيف غاب عن الدكتور المسيري الدور التغييري الجبار، الذي قام به الإسلام –وما زال يقوم به– في التاريخ البشري، وفي الانتصار للمظلومين والمستضعفين والفقراء، وأنهم أكثر أتباعه، وكيف غاب عنه قول الحق سبحانه: { ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولةً بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب (7) للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون (8) والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون}.
وكيف غاب عنه أن سيدنا أبا بكر الصديق ومعه سائر أصحاب النبي ﷺ، رضوان الله عليهم أجمعين، شنوا سلسلة حروب بعد انتقال النبي –ﷺ– للرفيق الأعلى، ضد من منعوا الزكاة، وقال سيدنا أبو بكر ﷺ– قولته التي خلدها التاريخ:
"والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه"[6].
وصار هذا حكمًا مستقرًا في الفقه الإسلامي؛ أن من منع الزكاة يقاتل عليها حتى يؤديها.
بل بلغ بالمسيري الاستغراق في الماركسية –كما نقد نفسه في ص: 134 من كتابه: (رحلتي الفكرية)– أنه نهر خطيبته حينما همت بالتصدق على سائل، حتى يشعر بالظلم فيثور، كما هي

[6] متفق عليه.

الاستجابة الجامدة في الفكر الماركسي الفاشل، الذي بشر بحتمية الثورة التاريخية، فانتهى في أحضان الرأسمالية.

كيف نزع هذا الفكر الجامد من قلبه الرحمة على السائل الفقير، مع أنه يبيح لنفسه أن يعيش عيشةً ميسورةً.

وكيف غابت عنه قيم الإسلام في الرحمة بالفقراء، يقول الحق سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8)﴾ [الإنسان: 8]، وكيف وصل لهذا الجمود والازدواج السلوكي، لا يعطي الفقير صدقةً بسيطةً، بينما لو احتاج أحد من أسرته للمال لوفره له، أي عقيدة فاشلة هذه؟

ولذلك بدلًا من أن يستجيب الفقراء لأساليبهم في التثوير ثاروا عليهم.

وجميعنا يعلم ثوار الفنادق، الذين كانوا يمضون سهراتهم في أفخم فنادق القاهرة، يتناقشون في مشاكل الكادحين، وقضايا النضال.

ولذلك كفرت بهم وبإلحادهم وبنفاقهم الطبقات العاملة نفسها، وسقطوا سقوطًا ذريعًا على مستوى الفكر والتطبيق، لأنهما يخالفان الفطرة والعقل والحس الإنساني.

وأنا هنا أود أن ألفت انتباه المشاهد الكريم للمقارنة بين شخصية الدكتور المسيري في تلك المرحلة وبين شخصيتين:

الأولى: شخصية الصحفية صافيناز كاظم، التي سافرت لأمريكا لدراسة الأدب سنة ألف وتسعمائة وستين، وكانت يساريةً علمانيةً، ولكنها لم تكن تنكر وجود الخالق سبحانه، وكانت تؤدي بعض الشعائر كالصوم، وقد ذكرت:

"وأثناء وجودي في أمريكا –وكنت ذاهبةً إليها مشبعةً بالتمجيد تجاه الغرب وحضارته الذي تم تلقينه لي على يد الأجيال السابقة علينا– فوجئت بهذا الانحطاط المغلف بحضارة بالقوة، وفوجئت بمن يقول لي أثناء إحدى المناقشات: "أمريكا تستطيع أن تدوس العالم بقدميها وقوتها" وإنني أندهش وأتساءل: لماذا لا تفعل ذلك طالما أن العالم يكرهنا؟

وعندما عدت من دراستي هناك –وكانت على نفقتي الخاصة– كتبت: "إننا نظلم أنفسنا عندما نمجد الغرب على حساب تراثنا، وإننا جهلنا عمدًا بحضارتنا".

وعاشت هناك ست سنوات متواصلة، فوجدت هناك جهلًا استعلائيًا تجاه المسلمين والعرب، ثم وجدت أنها تدرس أصول الغربيين الإغريقية، ولا تعرف عن أصولها إلا القليل، فقررت أن تثقف

نفسها بالمراجع الإسلامية، وفي أمريكا تعرفت لأول مرة على إنتاج سيد قطب رحمه الله، فقرأت كتابه (العدالة الاجتماعية)، بالإنجليزية، ، وذكرت:

"وأذكر أنني قد قرأت عام 1971 كتاب الشهيد سيد قطب "في ظلال القرآن"، الذي جاء في ستة مجلدات، فعزز من روحي المنتصرة المكتشفة للذات وللقدرات الخاصة بنا، والتي حاول الكثيرون أن يخفوها ويطمروها بعيدًا عن عيوننا، وأن يسرقونا منها، ويسرقوها منا، لكي نبدو مكسورين مهزومين عميًا وبكمًا وصما في اتجاه منتجات الحضارة الغربية".

الشخصية الثانية: التي أود أن ألفت انتباه المشاهد للمقارنة بينها وبين فكر الدكتور المسيري في تلك المرحلة هي شخصية الحاج مالك الشهباز، وقد أشرت لذلك من قبل، والذي أود أن ألفت النظر له هنا، أن مالك الشهباز رغم مدة إسلامه القصيرة، ورغم اطلاعه القليل على الإسلام، ورغم حفظه لسور قليلة من القرآن الكريم كما ذكر، رغم كل ذلك كان معتزًا بإسلامه، ولذلك لما وقف في منتدى أكسفورد، قال: "أنا مسلم، ديني الإسلام، ونبيي مُحَمَّد ﷺ".

لقد كان مالك الشهباز يحس بنعمة الإسلام عليه، فقد انتشله من قاع الجريمة والضياع، ورفعه إلى مستوى احترام نفسه، ثم أتم الله عليه نعمته بتعرفه على الإسلام الصحيح.

وإذا كان هناك من ملك الشجاعة من أمثال المسيري ومصطفى محمود وعادل حسين وصافيناز كاظم، ليعترف أنه كان منخدعًا بفكر منحرف، وغافلًا عن أساسيات الإسلام.

فإن هناك االكثيرين الذين لا يملكون هذه الشجاعة، أو الذين لا زالوا منساقين في الانبهار الزائف.

***

– ومن دوافع الإلحاد اقترانه بالقوة المادية، فيصدق في من انبهر بها قانون ابن خلدون –رحمه الله– من ولع المغلوب بمحاكاة الغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.

وقد سقطت الشيوعية بفضل الله، فيمم الملحدون وجوههم لأمريكا وأوروبا، وأسأل الله أن تسقط قريبًا، فإلى أين سيتوجهون؟

***

– ومن دوافع الإلحاد انسداد أفق التغيير، والظن بأن المادية طريق النجاة كما ذكر عادل حسين، فيدخل المنخدع من باب إرادة التغيير، وينتهي للإلحاد، ثم يكتشف الحقيقة ويرجع، إن شاء الله له الهداية.

***

– ومن دوافع الإلحاد التأثر بفساد التعليم والإعلام والأفكار، كما روى الدكتور مُحَمَّد عباس عن الأستاذ عادل حسين.

***

– ومن دوافع الإلحاد الرغبة في الخلاعة والتفحش، كما ذكر المسيري عن رفاقه في حزب (حدتو).

***

– ومن دوافع الإلحاد المشاكل الأسرية، وبعضها –وأقول بعضها– قد يقع على الملحد فيها ظلم، ثم يصور الظالم له أن عليه أن يرضخ للظلم، لأنه إرادة الله.

***

– ومن أهم دوافع الإلحاد سقوط الرموز.

فقد يتعلق الشباب –خاصةً– برمز من الرموز، ثم تكشف الأحداث عن انهيار هذه القدوة، وسقوطها المبدئي، وتحولها لأداة من أدوات الظلم والفساد.

أو يكتشف أن القيادة قادته للهزيمة بسبب إحجامها وضعفها عن مقاومة الكفر والفساد.

وهناك من الجماعات من ظلت تؤكد لأفرادها أنها ضد العنف، وأن العنف لا يؤدي إلا للخسارة، وأنهم سيصلون لأهدافهم عبر الوسائل السلمية، وأن العنف فقط مع العدو الخارجي، وكأن النبي ﷺ– لم يقاتل قومه، وكأنهم لم يقرأوا قول الحق سبحانه عن قوم النبي –ﷺ– بأنهم الكافرون المجرمون، الذين أراد الله سبحانه أن يقطع دابرهم: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)﴾ [الأنفال: 7–8].

ثم غزوة أحد كانت ضد من؟ وغزوة الأحزاب كانت ضد من؟ وغزوة الفتح الأكبر فتح مكة، كانت ضد من؟

أولم يقاتل الصحابة –رضوان الله عليهم– قومهم العرب بعد وفاة النبي ﷺ؟

أوليس في كتب الفقه باب اسمه (باب الردة)؟ أولم يسمعوا لقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54)﴾ [المائدة: 54].

أولم يجمع الفقهاء على أن المرتد أغلظ جرمًا من الكافر الأصلي، أولم يجمعوا على أن الإمام إذا ارتد وجب خلعه وقتاله؟

وظل القادة يؤكدون للأتباع أن سلميتهم أقوى من الرصاص. ووثقت القواعد في القيادات، ثم استغلت قوى الطاغوت تلك السلمية، فحصدت الأبرياء حصدًا، فخرج من صفوفهم من ألحد.

كذلك قد يكون من دوافع فتنة الإلحاد رؤية الأتباع لانتهازية القيادات، حين يرونهم يتساومون مع الطواغيت، ولا يتحركون لنصرة الثائرين على الظلم، الذين يقتلون في الشوارع، ولا يهتزون لمنظر الفتاة المنقبة وهي تسحل في الشارع.

أسأل الله لنا ولهم الهداية.

***

– ومن دوافع الإلحاد عدم الصبر على البلاء والشدة.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10)﴾ [العنكبوت: 10]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11)﴾ [الحج: 11].

وقد قص لي صديق مقرب اعتقل ضمن من اعتقلتهم الحكومة المصرية عام ألف وتسعمائة وخمسة وستين، ووقع عليهم من العذاب والنكال ما أسأل الله أن يجعله في ميزانهم يوم القيامة، أنه كان معهم معتقل ألحد، وكان يقول: لو كان للكون إله لما قبل أن يقع كل هذا الظلم، أو ما معناه.

ومن ذلك أيضًا ما كتبه الأستاذ أحمد عادل كمال في كتابه (النقط فوق الحروف الإخوان المسلمون والنظام الخاص) في ص: 465:

أنه كان معهم في السجن سنة ألف وتسعمائة وسبعين ميلاديةً معتقل سياسي، قد خرج عن طوره من شدة ما لقي من ظلم، فأقسم ألا يصلي لله ركعةً ما دام عبد الناصر حيًا، فلما بلغهم خبر وفاة عبد الناصر ليلًا، ذهب إليه من أيقظه، وكان نائمًا، فقال له: "قم فصل".

فسأله: والله؟

فقال له: والله.

فقام يجري ليتوضأ يتطاير نعلاه من قدميه من تعجله.

وأقول: سبحانك ربي. ما أحلمك على عبادك.

ومن صور عدم الصبر على البلاء والشدة نشوء الملحد في بيئة تشجعه على التدين وتثني عليه، وتيسره له، فينشأ على التدين السهل، الذي لم يختبر في الابتلاء، فإذا أصابه أو أحاط به البلاء، فزع وانهار وتزعزعت ثقته، وآثر الهروب من الدين ومن كل ما يتصل به، وتعلل بأنه لا يقتنع بوجود إله، حتى يبرر هروبه من البلاء.

ومن الصور ترك بعض الفتيات لحجابهن لأذى تعرضن له، ثم منهن من تركت الدين كليةً، لما وجدت أن التدين سيحرمها من الثناء السابق، ويعرضها للأذى اللاحق.

وفي المقابل هناك ملايين المسلمات الصابرات المحتسبات المهاجرات المجاهدات، اللاتي يكتبن تاريخ أمتهن نحو النصر بتضحياتهن، وثباتهن ويقينهن، فجزاهن الله عن الإسلام خير الجزاء.

***

- ومن الدوافع للإلحاد النفور من دعوات علماء السوء.

الذين يبررون الظلم والفساد، وأن الحاكم حتى ولو كفر لا يخرج عليه، ولو زنى كل يوم على التلفاز نصف ساعة، فلا شأن لك به.

***

وقد يجتمع أكثر من سبب. أسأل الله لنا وللمسلمين الهداية والعافية، وأن يرد كل ضال ردًا جميلًا، والمعافى يحمد الله. قال الحق سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (83)﴾ [النساء: 83].

***

أنتقل الآن للقسم الثالث من حديثي عن: الأهداف السياسية من نشر الإلحاد بين المسلمين.

وفي هذا الجزء من حديثي سأترك الأمريكان يتكلمون، ليوضحوا أن العلمانيين والملحدين هم حلفاؤهم الطبيعيون في العالم الإسلامي.

وأحيل المشاهد الكريم في هذا الصدد لدراستين هامتين صادرتين عن مؤسسة راند هما (إسلام ديمقراطي مدني) من تصنيف تشريل بينارد، و(بناء شبكات إسلامية معتدلة) تصنيف إنجل راباسا وآخرين.

فتذكر تشريل بينارد الهدف من دعم الملحدين واللادينيين الذين تسميهم بالمعتدلين بوضوح في الصفحة التاسعة من المقدمة لكتابها (إسلام ديمقراطي مدني)، فكتبت أن هناك صراعًا داخل العالم الإسلامي:

"وهذا الصراع له تبعات خطيرة وآثار اقتصادية واجتماعية وسياسية وأمنية على سائر العالم".

وأضافت:

"وبالتأكيد فإن الولايات المتحدة والعالم الصناعي المعاصر بل –وفي الحقيقة– المجتمع الدولي يفضل عالمًا إسلاميًا متوافقًا مع بقية النظام؛ ديمقراطيًا منتعشًا اقتصاديًا مستقرًا سياسيًا، ويتبع قواعد وأعراف السلوك الدولي".

كما أضافت أن الغرب يسعى إلى منع: "العسكرة المتزايدة عبر العالم الإسلامي بتابعيها؛ عدم الاستقرار والإرهاب.

ولهذا فإنه من الحكمة أن نشجع العناصر داخل التركيبة الإسلامية، التي هي أكثر توافقًا مع السلم العالمي والمجتمع الدولي، والميالة للديمقراطية والحداثة".

إذن فالمطلوب دعم العناصر المتوافقة فكريًا مع الغرب، حتى يتبع العالم الإسلامي قواعد وأعراف السلوك الدولي، ويصير أكثر توافقًا مع السلم العالمي والمجتمع الدولي، أي أن يكون تابعًا طيعًا منساقًا مستسلمًا لا يعترض ولا ينتفض، ولا يقاوم سيطرة وهيمنة السادة الكبار والقوى العظمى، أو بعبارة أصرح؛ أن يقبل بعضوية الجمعية العامة للأمم المتحدة، ليكون راضخًا لإرادة الخمسة الكبار، الذين يفرضون عليه ما يشاءون من قرارات، ويلوحون في وجهه بالفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

فإن لم يرعو وينزجر، فالجيوش الجرارة، والأساطيل الجبارة، والأسراب الهدارة على أهبة الاستعداد للغزو والقصف والقتل والحرق والتدمير، وخلع الحكومات وتنصيب الحكام الجدد بديمقراطية البي 52 وحرية جوانتانامو وحقوق الإنسان في السجون السرية.

وذكرت تشريل بينارد أنها في حوار لها مع ابن الوراق -وهو اسم مستعار لملحد علني ألف كتابًا بعنوان (لماذا لست مسلمًا) وكتابًا أخر بعنوان (ترك الإسلام: المرتدون يجهرون)، ومؤسس معهد علمنة المجتمع الإسلامي-:

اتفق معها على أن النقد الصريح للإسلام في هذه المرحلة قد لا يكون عمليًا، وأن الأفضل بذل الجهد في تشجيع إسلام ألطف وأسلس ومنزوع الأنياب!

أما إنجل راباسا وزملاؤها فيكتبون أن الأولوية في الدعم في حرب أمريكا الفكرية يجب أن تعطى:

1- للأكاديميين التحرريين والعلمانيين المسلمين. فتأمل التناقض.

2- ولشباب علماء الدين المعتدلين.

3- والنشطاء الاجتماعيين.

4- وللمجموعات النسوية الداعية للمساواة بين الجنسين.

5- وللصحافيين والكتاب المعتدلين.

وأن الولايات المتحدة يجب أن توفر لهم ظهورًا ومنصات، فيدرجون في برامج زيارات الكونجرس، لكي يتعرفوا على صناع السياسة في أمريكا. كذلك يجب دعم وسائل الإعلام المعتدلة في مواجهة وسائل الإعلام التي يسيطر عليها أعداء الديمقراطية والمحافظون.

ومن الذين تعتبرهم إنجل راباسا وزملاؤها من المسلمين المعتدلين الإيراني مهدي مظفري، الذي كان رائدًا في إصدار بيان (معًا في مواجهة الاستبداد الجديد)؛ دعا فيه في أعقاب الضجة التي أثارتها الرسوم الكرتونية عن النبي محمد -ﷺ- لمواجهة النزعة الإسلامية ونشر المبادئ العلمانية بدلاً منها. ووقع على البيان معه أربعة من الملحدين العلنيين: إيان حرثي الصومالية وابن الوراق وسلمان رشدي وتسليمة نسرين.

ومن المسلمين المعتدلين عندهم أيضًا الممثلة الكوميدية شبانة رحمن الباكستانية الأصل، التي يعجبها أن تظهر على المسرح بالحجاب ثم تنزعه لتكشف عن رداء للسهرة، ثم تبدأ في السخرية من الشريعة. وفي مرة ظهرت على المسرح وبيدها نسخة من القرآن بيد وبيد أخرى شعلة من نار، وتمنت لو استطاعت حرقه.

إذن من يعتبرهم كتاب مؤسسة راند أولى الناس بالدعم هم من يسمونهم بالمسلمين المعتدلين أي الملحدين أعداء الشريعة.

كما تذكر إنجل راباسا وزملاؤها أن:

إنشاء شبكات ومؤسسات مسلمة معتدلة (أي ملحدة) سوف يوفر منصةً لتضخيم رسالة المعتدلين (أي الملحدين)، بالإضافة لتوفير نوع من الحماية ضد العنف والابتزاز.

ولأن المعتدلين لا يملكون الإمكانات لعمل ذلك، فإنهم قد يحتاجون لعامل مساعد خارجي، وأن الولايات المتحدة -بخبرتها الواسعة في دعم شبكات المعتدلين في الحرب الباردة ضد الكتلة الشيوعية- لها دور محوري في تهيئة المناخ للمعتدلين.

وتذكر إنجل راباسا وزملاؤها:

أن بعض من يسمونهم بالمثقفين التحررين المصريين أخبروهم بضرورة أن تساعد الولايات المتحدة في تضخيم الأصوات التحررية، حتى يتعرف عليهم محليًا ودوليًا.

وتذكر وزملاؤها -في هذا السياق-:

تصريح سعد الدين إبراهيم -التي تقر بأن الحكومة الأمريكية قد تدخلت لإخراجه من السجن- الذي يقول فيه: "إنني أقدر كل دعم استلمته".

وكذلك نجيب محفوظ -الذي منح جائزة نوبل لانتقاصه للدين وللذات الإلهية- تساءل:

"ما المشكلة إذا كان الأمريكان يريدون أن تكون لنا ديمقراطية؟ أحيانًا قد تتفق مصالحنا".

وأذكر هنا بما نقلته عن الدكتور المسيري في الحلقة الخامسة من هرولة من يسمون بالمثقفين للسفارة الأمريكية لتحمي الديمقراطية، ضد الإرهاب.

وترى إنجل راباسا وزملاؤها:

أن من الدروس المستفادة من الحرب الباردة؛ أن المنظمات التي كانت حكومة الولايات المتحدة تمولها كان يسمح لها بالاختلاف مع سياسات الولايات المتحدة، وأن الكثيرين في حكومة الولايات المتحدة كانوا يرون أن مصداقية هذه المنظمات وهؤلاء الأشخاص تزداد بإظهار اختلافهم الجذري مع سياسة الولايات المتحدة.

أي أن الأمريكان قد يسمحون لعملائهم من الملحدين بإظهار معاداتهم لأمريكا.

وترى وزملاؤها:

أن من الأفضل أن يتم دعم مؤسسات المعتدلين بصورة غير مباشرة، ولذا فإن دعم تلك المؤسسات عبر مقاولين غير حزبيين ولا حكوميين متعاقدين مع حكومة الولايات المتحدة أفضل من تقديم الدعم مباشرةً لها، حتى لا تظهر الخيوط السياسية التي تربطها.

وتذكر أيضاً وزملاؤها:

أن المساعدة الخارجية موضوع حساس جدًا في العالم الإسلامي، ولذا فإن مفتاح النجاح هو التعامل مع الشركاء الموثوقين مع إبقاء الدعم الخارجي خلف الستار.

إذن هو تحالف أمريكي إلحادي ضد الإسلام والمسلمين، لتكتمل حلقة الحصار، بمهاجمة عقيدتنا الإسلامية، لتتحقق عبوديتنا وتبعيتنا التامة لهم.

***

وفي الختام فإني أتوجه بنصيحة خالصة لكل من تورط في الإلحاد أن يراجع عقله وفطرته، وأن يستفيد من تجارب من سبقوه ثم من الله عليهم بالهداية.

وأن يعلم أنها حياة واحدة، لا رجعة بعدها للدنيا، فإما النجاة وإما الهلاك.

كما أؤكد له أن الله قد وعدنا بالنصر، وقد رأيته بعيني في انتصار الفقراء الضعفاء الأفغان على الملاحدة الروس، ورأيته في داغستان أثناء سجني فيها، ورأيت كيف اندحر الإلحاد الشيوعي شر اندحار، وقد صارت كلمة شيوعي (كمونست) سبةً تعني الشخص الدنيء الحقود، ورأيت كيف غيرت حكومة داغستان اسم أكبر شارع في العاصمة محج قلعه من (كارل ماركس) إلى (الإمام شاميل) رحمه الله.

وفي مرة أخذت لوزارة الاستخبارات للتحقيق، ولما أدخلوني المبنى، وضعوني في غرفة صغيرة للانتظار، وكان يبدو أنها غرفة لحارس مناوب، إذ كان فيها سرير صغير، ولما أغلقوا علي الباب، وجدت على الباب من الداخل صورةً للإمام شاميل رحمه الله، وهو ممتط جواده، وممتشق لسلاحه،

واصدع بما قال الرسول ولا تخف ... من قلة الأنصار والأعوان

فالله ناصر دينه وكتابه ... والله كاف عبده بأمان

وتعر من ثوبين من يلبسهما ... يلقى الردى بمذمة وهوان

ثوب من الجهل المركب فوقه ... ثوب التعصب بئست الثوبان

وتحل بالإنصاف أفخر حلة ... زينت بها الأعطاف والكتفان

والحق منصور وممتحن فلا ... تعجب فهذي سنة الرحمن

لكنما العقبى لأهل الحق إن ... فاتت هنا كانت لدى الديان

وأتى فريق ثم قال ألا اسمعوا ... قد جئتكم من مطلع الإيمان

من أرض طيبة من مهاجر أحمد ... بالحق والبرهان والتبيان

سافرت في طلب الإله فدلني ال ... هادي عليه ومحكم القرآن

مع فطرة الرحمن جل جلاله ... وصريح عقلي فاعتلى بنياني

فتوافق الوحي الصريح وفطرة الـ ... رحمن والمعقول في إيماني

فقلت في نفسي: الله أكبر انتصرنا، فها هو الإمام شاميل -رحمه الله- لا يزال يقاتل الروس حتى اليوم، وفي عمق أقوى حصونهم وزارة الاستخبارات. رغم أني أثناء التحقيق معي في الاستخبارات رأيت في أكثر من مكتب صورةً للينين، فقلت لعلهم من الضباط الشيوعيين. ولكن الفارق بين الصورتين كان واضحًا، فصورة لينين لا تضر من يضعها، وهي رمز للعهد البائد المنهزم، أما صورة الإمام شاميل رحمه الله، التي أخفاها واضعها خلف الباب، فهي صورة الإسلام المنتصر -بإذن الله- على المادية المنهزمة.

***

إخواني المسلمين إن الأعداء قد تكالبوا علينا فكريًا ودعائيًا وماديًا، وعلينا أن نستعين بالله ونتحد في مواجهتهم على كل جبهة، وأسأله سبحانه أن يرزقنا شكره على نعمة الإسلام والإيمان، وصدق الله

العظيم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)﴾ [النساء: 113].

اللهم اهدنا واهد بنا ويسر الهدى لنا، واجعلنا من الهداة المهتدين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بيت المقدس